أضواء جديدة حول تخطيط المدينة الهللينستية في الشرق الأدنى القديم

أ.د / عزت زكي حامد قادوس
رئيس قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

كان للموقع الجغرافي للشرق الأدنى القديم ، ولتوافر الشروط الطبيعية الملائمة دور في النمو الاقتصادي إضافة إلى توافر المواصلات التجارية مما جعل المنطقة دائمًا عرضة للأطماع الأجنبية .

وبقدر انفتاح مصر وسورية على التأثيرات الحضارية الخارجية ، بقدر ما استطاعت استيعاب هذه التأثيرات وبالتالي تطويرها ، ومن ثم تذويبها في إطار تراثي محلي[١]، أما على الصعيد السياسي فقد كانت لتلك التأثيرات الخارجية أثرها السلبي مما ساعد على قيام دويلات تتعايش أحيانًا وتتطاحن أحيانًا ولم تصل إلى مشروع وحدوي إلا في حالة مواجهة ضغط أجنبي ما .

وخلال منتصف القرن السادس ق.م أضحت سورية ومصر جزءين من الإمبراطورية الفارسية ، ومن أهم ولاياتها .

وفي عام ٣٣٢ ق.م وصل الاسكندر المقدوني إلى مصر [٢]في طريقه لفتح الأجزاء المتبقية من الإمبراطورية الفارسية بعد أن سيطر على أطرافها الغربية في آسيا الصغرى وسورية. ٣٣٣ ق م دخل الاسكندر المقدوني الأراضي السورية بعد الانتصار الذي حققه في معركة أسوس. وقد عبر سورية مرتين ، الأولى في طريقه إلى مصر والمرة الثانية إثناء زحفه نحو بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس ، لكن مجرد ما لقي الاسكندر حتفه في بابل سنة ٣٢٣ ق.م حتى دبت الصراعات والنزاعات بين قواده على السلطة ، فاستطاع سلوقس تثبيت حكمه في سورية ، بينما اختار بطلميوس مصر، وهكذا أصبحت بلاد الشام ووادي النيل ووادي الرافدين أجزاءً من العالم الهللينستي ، حيث اللقاء الحضاري ، والتفاعل بين ثقافتين : شرقية وغربية ، وسوف نتحدث فيما بعد عن هذا الاتصال الحضاري متسائلين : هل كان التأثير الغربي (الإغريقي) على الشرق (صر وسورية) تحديدًا تأثير يشمل كل النواحي الحضارية .؟ أم أن الشرق خلال الفترة الهللينستية كان نسخة للغرب؟ وهل يمكن الحديث عن فعل التثاقف (Acculturation) بينهما ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فكيف استوعب الشرق – من خلال مخططات مدنه – التفكير الإغريقي ؟ هل هو استيعاب من أجل الاستيعاب فقط ؟ أم أنه استيعاب حضاري – إنساني

---

[١] هورست كلينكل ،أثار سورية القديمة ، ترجمة قاسم طوبر ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٥، ص ١٥.

[٢] إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الأول ، مكتبة الأنجلو المصرية ،الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ص ص١٨-٣٤.

يبغي إخضاع الآخر(الإغريقي) إلى قراءة واعية من اجل تطويره وجعله يتناسب والشخصية المحلية ، ومن ثم تجاوزه ؟ أسئلة أراها ضرورية ، كلما تحدثنا عن الفترة الهللينستية ، باعتبارها فترة تعكس وود ثقافتين مختلفتين على المستوى المرجعي ، وعلى المستوى الأيدلوجي .

قبل ذلك كان لزامًا عليّ أن أحدد مفهوم المدينة في الشرق ، وعند الإغريق . بمعنى آخر ، كيف يتصور التفكير الشرقي المدينة ؟ وكيف يراها التفكير الإغريقي؟

مفهوم المدينة في الشرق

من المعروف – حضاريًا وأثريًا – أن منطقة الشرق القديم قد شهدت البوادر الأولى للمدنيات ، سواء في وادي النيل أو بلاد الرافدين ، أو بلاد الشام وفلسطين ، فقامت هناك حضارات عظيمة ، كان لها الأثر الكبير في تطور الإنسان ثقافيًا ودينيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا ، لكن نود هنا أن نتساءل : كيف كان يتصور المواطن والسلطة في هذه الحضارات "المدينة"كمفهوم ؟ وبالتالي إلى أي حد استطاع أهل الشرق أن يخلقوا مفهومًا خاصًا للمدينة ، يرتبط وثقافتهم وفكرهم ؟ يبدو لي ، أن هذين السؤالين يحيلا المرء إلى قضية أخرى ، وهي علاقة الإنسان في الشرق بالسياسة والحكم والدين والطبيعة ، فمما لا شك فيه أن الإنسان في هذا العالم القديم كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بآلهته ومعتقداته ، والتي كانت في الوقت نفسه ، تحكمه سياسيًا فالسلطة السياسية فلم تنفصل عن السلطة الدينية ، فل هناك مستويين متباينين:

مستوى أعلى : يمثله الملك أو الحاكم وحاشيته .

ومستوى أدنى : يمثله سكان المدينة باختلاف انتماءاتهم الطبقية .

وسند هذا واضحًا على مستوى تخطيط المدينة نفسها ، فالأكربول أو الزاقورة كمكان مرتفع مقابل المدينة السفلية ،إضافة إلى ذلك فالمؤسسات الدينية كانت من أعم المؤسسات ذات القيمة الأثرية والحضارية ، فالمعبد يشكل المحور في المدينة الشرقية ، وهو الركيزة لسن القوانين ، وإليه ومن أجله تبدع كل ال مهارات الفنية والجمالية والمعمارية ، فالمدينة أو المعبد يشكل –بكل تأكيد– المستوى الفني والجمالي لكل مدينة على حدة .

إن المعبد الشرقي يتسم بالعظمة والضخامة والغموض في البناء ، فلا يمكن للمتعبد أن يلج إلى غرفة قدس الأقداس المخصصة لرجال الدين " الكهنة " الذين يشكلون طبقة ذات امتياز وأهمية في المجتمع. فظل تصور الإنسان في بلدان الشرق القديم للمدينة من خلال المعبد ذاته وليس اعتبار المدينة كفضاء(space) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان متعددة .

وإلى جانب المعبد هناك محور آخر هام في المدينة : يمثله القصر الذي يُباشر منه الحاكم سلطته وقد روعي في تخطيط المدينة : العلاقة بين القصر والمعبد فالشارع الطولي الرئيسي ، لم يكن ذا مغزى مدني صرف ، بقدر ما كان مرتبطًا بالمعبد أو القصر فالشارع لابد وان يفضي بالزائر إلى المعبد أثناء دخوله المدينة. ولعل هذا الجانب الديني الخالص الذي ارتبط به الإنسان في الشرق هو ما جعل

المقدونيين يتأثرون ويتفاعلون مع هذه التصورات التي نجدها واضحة في العصر الهللينستي .

إذن يتضح أن هناك اختلاف حول مفهوم المدينة عند –الإغريق كما سنرى في حديثنا عن مفهوم المدينة عندهم– وقبلهم عند الشرق اختلافًا سيصبح ائتلافًا عند دخول الإغريق إلى بلاد مصر والشام والرافدين فحدث ذلك التمازج العظيم بين ثقافتين [٣] من أعظم الثقافات التي شهدها التاريخ الحضاري القديم ، إلى جانب الثقافة الرومانية والإسلامية فيما بعد .

مفهوم المدينة الإغريقية

إن البحث في مسألة مفهوم المدينة الإغريقية يعتبر من الموضوعات المعقدة لاعتبارات عدة ، منها ما يعود لمفهوم الإغريق عن المدنية والسياسة والسلطة ومنها ما وصلنا عن الإغريق من خلاصة رؤية الفلاسفة الإغريق لهذه المسألة حيث اختلط المفهوم التاريخي بالمفهوم النظري والمفهوم الأسطوري.

فالإغريق القدماء اعتبروا أن وجود المدينة كان حدثًا طبيعيًا وليس وليد العرف والاتفاق فأرسطو يُعرف الإنسان بأنه حيوان سياسي أو مدني (٤) فالإنسان عنده " مدني " بمعنى انه ينتمي إلى المدينة وانتماؤه هذا طبيعي وليس مكتسبًا حيث إن الإنسان " ينشأ ويتشكل وينمو في الأسرة ويصل إلى تكامله ويحقق طبيعته في المدينة " . (٥)

وهناك نظرية أخرى تربط مفهوم المدينة بعامل جغرافي باعتبار أن لابد اليونان تمثل جغرافيًا بقاعا منخفضة من الأرض تحيط بها جبال علية ليس لها من منفذ إلا الشاطئ ،هذه الحتمية الطبيعية فرخت قيام مقاطعات عديدة نطلق عليها مصطلح دولة المدينة n oλıs كل واحدة منها يمكن اعتبارها نمطًا لمجتمع صغير ، فهذا التقسيم الطبيعي انعكس بدوره على الجانب السياسي فنشأت المدن اليونانية بسماتها وخصائصها المميزة عبر التاريخ ، وهناك نظرية ثالثة تؤكد على دور العامل الديني وتفسر مفهومها للمدينة من خلال التصورات الدينية والمعتقدات الأولية وقد تبنى هذه النظرية مجموعة من الباحثين الأثيين وخاصة F . De Coulages(٦) الذي يرجع أسباب قيام النظم الاجتماعية إلى العبادات والشعائر الدينية وتقديس الموتى والنار المقدسة .فتلك كما يقول "كولانج " زعيم المدينة هو وقبل أي شئ زعيم ديني ، وعليه فالسلطة السياسية تجحد مصدرها في الوظيفة المقدسة (٧).

---

(٣) نأخذ الثقافة هنا بمفهومها الأنثروبولوجي العام.

(٤) راجع : نقولا زيادة ، المدينة الكلاسيكية في الغرب والشرق ، مجلة الفكر العربي ، العدد ١٩٨٢ ، ٢٩ ، بيروت ، ص ٣٢.

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٦) F.De coulages, la cite antique IV. 9.p .337.

(٧) Ibidem, p.337

إن مدنًا كأثينا وإسبرطة وسيراكوز وطيبة وكورنثة ، أعطت من خلال أنظمتها السياسية ونظمها الاجتماعية صورة من عظمة الفكر الإغريقي ، وفلاسفة اليونان يرجعون تفوقهم على غيرهم من الشعوب إلى تصورهم لنماذج المدنية ، فقد عرفت المدن اليونانية مختلف أشكال الحكم من ملكي وأرستقراطي وأوليجركي وديموقراطي واستبدادي .

وبالرغم من هذا التعدد والاختلاف ، فهناك خصائص ثابتة وعامة اتسمت بها المدن الإغريقية كلها كالنظرة إلى العلاقة بين الفرد والدولة ، ومفهوم الحرية والمواطنة ، وشرعية الحكم وسيادة القانون إضافة إلى المدينة كتخطيط حضاري ، يشمل الجوانب : الاقتصادية والتربوية والدينية والرياضية والفكرية وغيرها ، من خلال إنشاء مؤسسات ترتبط بهذه الجوانب كلها . وهذا ما أعطى للمدينة الإغريقية مكانة رائدة في التاريخ الإنساني سواء أكان على المستوى الفكري النظري أو التخطيطي العملي .

المدينة الشرقية خلال الفترة الهللينستية

١. دخول الاسكندر :

بلاد الشام (سورية)

إذا كانت حضارات الشرق الأدنى تتصف بوجود المراكز الحضارية المتعددة التي أفسحت مجالاً رحباً للتأثيرات الخارجية وللتطورات المحلية الخاصة وبالتالي أعطتنا وأفرزت لنا تعددًا كبيرًا في الأشكال الفنية والإبداعية ، فإن الفترة الهللينستية قد أعطت لهذه الأشكال انسجامًا وتماسكًا أكثر ، وكان للقاء الغرب بالشرق على أرض مصر والشام ، ثمارًا مشتركة يصعب في كثير من الأحيان تحديد حصة كل منها (٨). لقد جرت العادة ، في العالم الإغريقي أنه عند التفكير في إنشاء مدينة جديدة كانت تبذل قصارى الجهود في اختيار الموقع (٩) من الناحية الصحية ، وغيرها من المزايا الطبيعية ، وكان الفلاسفة الإغريق و مخططوا المدن يدرسون كل هذه العوامل بعناية فائقة ، ولهذا عندما أصبحت سورية جزءًا من العالم الإغريقي إثر فتوحات الاسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٣ق.م) فقد غدت مهيأة كموقع لمدينة إغريقية جديدة ثبت أنه كان من أحسن المواقع في العالم القديم ، وكما يقول داوني(١٠): " إن تاريخ أنطاكية بأكمله ومراحل تطور حضارتها لتنهض دليلاً على حسن اختيار موقعها ومزاياها الطبيعية مما حدا بالقائد سلوقس نيكاتور إلى القيام ببناءها هناك في سنة ٣٠٠ ق. م". إن طبيعة التكوين الجغرافي لسورية قد هيأت لسهل العمق (Amuk) أن يكون أحد العوامل الأساسية في طرق المواصلات في الجزء الشمالي الغربي من ذلك الإقليم ، إذ أنه كان يجب أن تمر في هذا السهل

---

(٨) راجع : كلينكل ، المرجع السابق ، ص ٦٠.

(٩) نفس المرجع.

(١٠) جلانفيل داوني ، أنطاكية القديمة ، ترجمة : إبراهيم نصحي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ٢٣.

جميع حركة التجارة والنقل بين الجزء الجنوبي من الأناضول والجزء الساحلي أو الغربي من سورية وفلسطين وأيضًا جميع حركة التجارة والنقل من الجزء الشمالي لبلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط (شكل ١) . كل هذه العوامل إضافة إلىعوىمل أخرى كانت سببًا في تأسيس من سورية عديدة ، وخاصة أنطاكية التي سوف نتحدث عنها لاحقًا ، وكان هذا التأسيس نتيجة منطقية لمرحلة طويلة من التطور في هذا الإقليم ([١١]).

ولم تكن مناطق سورية معزولة عن العالم الإغريقي قبل دخول الاسكندر الأكبر ، بل تعود علاقات سورية مع هذا العالم إلى زمن بعيد ، وحسب نتائج الحفائر الأثرية في مواقع (الآلاخ) تل العطشانة ، و(المينا) و (صابوني) عند مصب نهر العاصي فإن التجار الإغريق كانوا يعيشون في (المينا) و (صابوني) منذ عهد مبكر ،، وقد عثر في (الآلاخ) ومواقع أخرى على كميات هائلة من الفخار الموكيني (Mycenae) والقبرصي ([١٢]) الذي يعود إلى العصر البرونزي مما يدل دلالة واضحة خلال هذه الحقبة الهامة على وجود علاقات تجارية مع الغرب وقد استمرت منتجات الإغريق والجزر الأخرى التابعة لها تمر عبر هذه الطريق ([١٣])(شكل ٢). حتى عهد الإسكندر الأكبر فمن المعروف أن فكرة إنشاء أنطاكية تعود إلى الإسكندر الأكبر في الوقت الذي تؤكد فيه بعض المصادر أن تأسيسها يعود إلى سلوقس الأول ، لكمن ما يهمنا هو أن أنطاكية كمدينة حظيت بقدر كبير من الاهتمام من قبل الإسكندر الأكبر فإذا كان الاسكندر قد زار المنطقة –فعلاً– فإنه يحتمل أن يكون قد فطن لأهمية الموقع وخصائصه ، وأن مشروع تأسيس المدينة قد أثارت فكرته أذهان الاسكندر وقواده ([١٤]).

لقد كانت فتوح الإسكندر الأكبر لبلاد المشرق في آسيا الصغرى إلى بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين حدثًا هامًا في تاريخ هذه البلاد ، لكن بعد وفاته (٣٢٣ ق.م) دب الخلاف بين قواده فبعضهم أراد المحافظة على وحدة الإمبراطورية الشاسعة ، فقد قبل أنتيجونوس على أن يكون هو الوريث والبعض الآخر قد رغب في تولي شؤون جزء من الإمبراطورية ، ومن هؤلاء بطلميوس الذي استقر في مصر حاكما أولا ثم ملكا مؤسسًا لأسرة البطالمة هناك ([١٥]). لهذا ذهبت كل محاولات الاتحاد أدراج الرياح ، فأصبح المشرق تحت يد السلوقيين والبطالمة والأنتيجونيين.

مصر (الإسكندرية)

تأسست الإسكندرية بدخول الإسكندر الأكبر المقدوني إلى مصر سنة ٣٣٢ ق .م ولعل موقعها الجغرافي – الاستراتيجي ، كان سببًا من أسباب هذا التأسيس ،

([١١]) نفس المرجع.

([١٢]) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم ، القاهرة ، ١٩٩٧، ص ٤٤–٥٧.

([١٣]) يقصد بهذه الطريق : وادي العاصي (Oronts) ، وسهل العمق.

([١٤]) داوني ، المرجع السابق ، ص ٤٥.

([١٥]) زيادة ، المرجع السابق .

ولن ندخل في إشكالية السبب الذي حدا بالإسكندر الأكبر إلى اختيارهذا الموقع ([١٦]) لكن ما يبرر هذا الكلام هو التراث الحضاري والطبيعي الذي عرفته مصر ، بكل ما تضمنته من قيم واتجاهات ورؤية للعالم ([١٧]) فالإنتاج الزراعي الذي يوفره النيل ، والموقع التجاري الوسيط ، والرصيد الديني ، كل هذه المعطيات قد هيأت من مصر عامة ، والإسكندرية خاصة أن تكون من احسن العواصم العالمية إبان الفترة البطلمية ،ويصف لنا " محمد عواد حسين " ([١٨]) مميزات الإسكندرية بقوله : " سهولة وصول مياه الشرب إليها وقربها من بحيرة مريوط ، و من جزيرة صغيرة كانت تقع تجاهها في البحر ، ولا تبعد عن الشاطئ بأكثر من ميل واحد وهي التي عرفت باسم جزيرة فاروس هذا بالإضافة إلى جفاف المكان ، وارتفاعه عن مستوى الدلتا ، وبعده عن الرواسب التي يأتي بها فرع رشيد". من هذا المنطلق قامت الإسكندرية ومدن أخرى. فالمدينة الوحيدة التى أشرف عليها الإسكندر واختطها هى الإسكندرية ورغم أن البطالمة لم يكونوا بناة مدن ([١٩]) إلا أنهم قد اهتموا بهذه المدينة اهتمامًا يفوق الوصف واعتنوا بمدينة نوقراطيس (في غرب الدلتا) . كما بنوا مدينة بطلمية "Ptolemais" في مصر العليا حتى تكون نداً لمدينة طيبة الفرعونية القديمة (عاصمة الامبراطورية المصرية في القرن الخامس عشر ق.م) لكن المنطقة التي عرفت تنوعًا واختلافًا بالنسبة للمدن في العصر الهللينسيتي فهي آسيا الصغرى ، وبلاد الشام وخاصة المملكة السلوقية .

وقبل تناول مدينتي الإسكندرية وانطاكية باعتبارهما نموذجين لتخطيط المدينة الهللينستية الشرقية ، أرى – لزاما – علىّ الحديث عن الغايات والأهداف وراء تأسيس المدن الشرقية خلال الفترة الهللينستية ، وتحديداً مدينتا الإسكندرية وإنطاكية.

(ب) أهداف تأسيس المدن الهللينستية الشرقية

من أهداف بناء وتأسيس هذه المدن خلال الفترة المشار إليها :

أولاً : كان الهدف الأول عسكريًا حربيًا وذلك للحفاظ على هذه المدن التي ظلت بأيدي السلوقيين والبطالمة ، والسيطرة على الطرق التجارية .

ثانياً : أن يكون سكان هذه المدن (وخاصة بلاد الشام) إغريق ومقدونيين . وذلك لسببين :

الأول : اطمئنان السلوقيين إلى مواطنيهم .

الثاني :كي تصبح هذه المدن ركيزة اجتماعية تدعو إلى التوازن والاستقرار ([٢٠]).

([١٦]) لمزيد من التفاصيل ، انظر : عزت قادوس، آثار الإسكندرية القديمة ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ٢٠٠٠ ، ص ٥-٦.

([١٧]) لطفي عبد الوهاب ، الإسكندرية في العصر البطلمي ، تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، محافظة الإسكندرية ، ١٩٦٣، ص ٢٤.

([١٨]) محمد عواد حسين ، تخطيط المدينة ، تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، ص ١٣.

([١٩]) زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧١.

([٢٠]) نفس المرجع ، ص ٧١.

ثالثاً : كانت تمنح أراضي المستوطنات للمقيمين (المستوطنين) وبالتالي تصبح ملكًا شخصيًا لهم ([٢١]).

رابعاً : إن أغلب هذه المستوطنات – التي أصبحت مدنًا – يتمتع سكانها بالحريات العامة التي كان الإغريق (لا أهل مقدونيا) يعرفونها في مدنهم الأصلية ، وأن تتوافر لها مؤسساتها، على أنه يجب الإشارة إلى أن الملك السلوقي عندما كان يؤسس " مدينة " أو يرفع مدينة إلى درجة مستعمرة كان أهم ما يميز المدينة – من حيث الحرية عمليًا – هو منحها حق " سك النقود "([٢٢])

خامساً : لقد استمر تخطيط المدينة اليونانية في أغلب المستعمرات التي أنشئت في الدولة البطلمية والسلوقية ، لكن المخطط هنا يترك مساحة لإقامة الأبنية اللازمة للمؤسسات المدنية والتجارية والرياضية (بعض الأبنية الرياضية كانت تقام خارج أسوار المدينة) ([٢٣]).

سادساً : هدف حضاري ، فقد أراد الاسكندر أن تصبح مدينته الجديدة – وقد أقامها على أسس الحضارة الإغريقية – معينًا لهذه الحضارة ، ينشر صداها في مناطق الشرق بعد فتحها والسيطرة عليها.([٢٤])

سابعاً : هدف تجاري، فالإسكندر كان قد حطم ميناء صور وهو في اتجاهه إلى مصر ، ومن ثم أصبح في حاجة ماسة إلى تأسيس ميناء جديد يعوض مكانة صور تجارياً ، إضافة إلى علاقة مصر بعالم بحر إيجه والتي كانت في تطور متزايد منذ عدة قرون سابقة على قدوم الإسكندر وهذا ما جعل الفراعنة يتجهون إلى الدلتا لتأسيس عواصم جديدة هناك فكان على الإسكندر أن يوثق هذه العلاقة ولتحقيق ذلك فقد أنشأ ميناءً كبيرًا يطل على بحر "إيجة " ([٢٥]).

لا يسعنا – من خلال عرض غايات وأهداف بناء هذه المستوطنات – الحديث عن الدور الذي قام به السلوقيون والبطالمة ، لكن الذي نعنيه من خلال هذه المقدمة – أساسا –هو المدينة الهللينيستية على المستوى الحضاري ، والدور الذي قامت به ، مع الإشارة إلى مؤسساتها المختلفة ومن هذا المنطلق سنحاول أولاً معرفة خصائص المدينة الهللينستية الشرقية كتوطئة لمعرفة مخططات كل من أنطاكية والإسكندرية .

(ج) خصائص المدن الهللينستية في الشرق

إن أكبر أثر تركه دخول الإسكندر الأكبر إلى بلاد المشرق كان على مستوى " المدينة " الدولة سواء تعلق الأمر بالمدينة الإغريقية نفسها أو المدينة الشرقية ، بالرغم من الاختلاف البين بالنسبة لتخطيط المدينة .

([٢١]) نفس المرجع ، ص ٧١-٧٢.

([٢٢]) نفس المرجع ، ٧٢ .

([٢٣]) نفس المرجع ، ص ٧٢

([٢٤]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق، ص ١٣

([٢٥]) نفس المرجع ، ص ١٣-١٤ .

فالتواجد الإسكندري ، فتح آفاقاً جديدة للإغريق حتى في عصر توسعها في البحر المتوسط والبحر الأسود ، وأيضًا بالنسبة للمشرق فالإمكانيات الاقتصادية والتجارية فيها بأسواقها المتعددة ، فتحت أمام السكان باختلافهم مجالات رحبة لم تعرفها – بهذا الشكل – من قبل وقد ظهرت أمام السكان قضايا جديدة واجتماعية ودينية وفكرية (٢٦) نشأت بفعل الاحتكاك والتواصل بين التجارب الشرقية القديمة والإغريقية الوافدة . وسوف نعرض لأهم مميزات هذه الجوانب من خلال المدن التي نسميها بـ "الهللينستية " (٢٧) في أواخر القرن السادس ق.م .

ولد هيبوداموس في مدينة ميليتوس في أيونيا (غرب آسيا الصغرى) وهي إحدى المدن الأولى التي أسسها الإغريقيون الذين فروا بفعل الغزو الدوري لبلادهم ، ويعود إنشاء ميليتوس (٢٨) إلى القرن العاشر ق.م ، وتعتبر المدينة الأولى التي خططها هيبوداموس بعد هزيمة الفرس (٤٧٩ ق. م) إذ تهدمت في كثير في أجزائها فاعتمد المهندس الخطة التعامدية الدقيقة في قسميها وترك بين البلوكات السكنية مكانًا واسعا للأبنية العامة المدنية والتجارية والدينية ، وقد عني بأن تكون هذه كلها يسيرة الاتصال بالميناءين ، والسور المحيط بالمدينة لم يكن متصلا عضويا بمخطط المدينة العام ، إضافة إلى الأكروبوليس للدفاع عن المدينة(٢٩). هناك مدن عمل هيبوداموس على تخطيطها مثل "بيرية" ميناء أثينا (٤٧٥ – ٤٥٠ ق. م) وتوري في جنوب إيطاليا (٤٤٤ – ٤٤٣ ق. م) لكن تعتبر مدينتا رودس وكنيدوس من أفضل النماذج على هندسة هيبوداموس .

والمدينة الهللينستية – الشرقية ، يعتمد مخططها الأساسي على المستطيلات المتناسقة التي تحدها الشوارع المتعامدة ، وخير مثال على ذلك مدينة دورا – أوروبوس (الصالحية) الواقعة على الفرات ، التي أنشئت حوالي ٣٠٠ ق.م وخربت سنة ٢٥٦ ق. م لكن مخططها الأصلي عبارة عن شبكة ذات تسعة شوارع طوليًا واثنى عشر شارعًا عرضيًا ، توجد بينها ما بين ستين إلى سبعين قطعة أرض في شكل مستطيل جاهزة للبناء ، مساحة كل منها (٧٠ × ٣٥ م) ، وعرض كل شارع خمسة أمتار ونصف المتر ، باستثناء شارعين أو ثلاثة ، وتقع الأجورا والأبنية الملحقة بها على مساحة ثماني قطع (الشكل ١٧) ، بينما يشرف الأكروبوليس على الفرات ،وكانت أسوار المدينة تتبع خطوط الارتفاع للأرض القائمة عليها (٣٠).

وثمة مدن أخرى عديدة ، عاشت التجربة الهللينستية ، سواء في الشام أو الرافدين أو في مصر ، ورغم أننا سوف نقصر الحديث على مدينتي أنطاكية والإسكندرية ، إلا أن هذا لا يمنع أن ندرج بعض المدن في الشرق التي كانت لها

---

(٢٦) زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧٤

(٢٧)E.Fezouls, Observation sur I'urbanisme dans I' orient syrien .Annales Archeologique Arabes Syriennes . vol. XXI, Tome 1-2. 1971.p.231.

(٢٨) لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور ، أصلها وتطورها ومستقبلها ، ترجمة إبراهيم نصحي ، الجزء الأول ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص ١٥٢ (١١).

(٢٩) زيادة، المرجع السابق ،ص٦٩.

(٣٠) ممفورد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣.

أهميتها خلال هذه الفترة المشار إليها وسوف نقف على أهمها مشيرين إلى مخططاتها .

فبلاد الشام ، عرفت تأسيس مدن ، خلال التواجد الإغريقي ثم السلوقي ، ومن أهمها : سلوقية (السويداء) ، اللاذقية ، أفاميا . فسلوقية كانت ميناءًا رئيسيًا يوصل أنطاكية (العاصمة) بالموانئ المتوسطية ، بينما اللاذقية كانت حلقة الوصل بين أواسط الأجزاء الشمالية في سورية وقبرص ومصر ، أما أفاميا (على نهر العاصي) فقد كانت منطقة زراعية خصبة (شكل ٣) وفي الأجزاء الداخلية من بلاد الشام ، بنيت مدن ، وأعيد بناء مدن أخرى مثل : بوروبا (حلب) ، وهيرابوليس ، وأبيفانيا (حماة) ، ولاريسا(شيزر) ، وارتوزا (الرستن) وهليوبوليس (بعلبك) ، وفلقيس (عنجر) ([٣١]) (شكل ٤) وفي بلاد الرافدين ، أنشأ السلوقيون (أوجددوا) دورا أوروبوس (الصالحية) وسلوقية في عيلام (سوسة) و (إنطاكية – إديسا) .

وفي فلسطين أنشأ الاسكندر مستوطنة عسكرية في السامرة ، وفي ايام البطالمة (القرن ٣ ق.م) تم إنشاء بطليموس عكا ، وسكيتوبوليس (بيسان) ، بينما أقام الإسكندر مستوطنة عسكرية في جيرازا (جرش) في الأردن ثم اهتم بها فيما بعد السلوقيين ، حيث أضافوا إليها هبوس (قلعة الحصن) وجدارا (أم قيس) ، وكذلك مدينة فيلادلفيا (عمان) التي كان البطالمة قد بنوها ([٣٢]) وفي مصر ، فقد كانت المدينة التي اختطها الاسكندر وأشرف على وضع الأسس لها هي مدينة الإسكندرية ([٣٣]) وقد اهتم البطالمة فيما بعد – بدرجة أقل – بمدينة نوقراطيس (في غرب الدلتا) ، التي كانت قد أنشأت في عصر التوسع اليوناني في القرن السابع ق. م ، وبنوا مدينة بطلميوس (في مصر العليا) كما سبق القول.

وسنتناول مدنا هللينستية ، أهمها :أفاميا (Apamea) دورا – أوربوس (Dura-Europos)– بصرى(Bosra) – فيليبوبوليس(Phillipopolis) – دمشق (Damascus)ثم تدمر (Palmyra) . إضافة إلى انطاكية والإسكندرية اللتان خصصتا لهما جزءًا مستقلاً لكل منهما.

أفاميا (APAMEA)

تقع أفاميا القديمة على بعد حوالي ٢٠ كم إلى الغرب من خان شيخون ، وتطل على أطراف وادي العاصي ، وفي مواجهتها سلسلة جبال اللاذقية (شكل ٥) بلغت أفاميا ذروة مجدها في الفترة الهللينستية ، فقد دخلها الإسكندر المقدوني ، وسماها (بيلا) تيمنا باسم مسقط رأس والده في مقدونيا ، وعندما أصبح سلوقس الأول سيدا على سوريا في عام ٣٠١ ق.م ، قام بتحصين وتوسيع تلك المدينة ، لكنه غير اسم (بيلا) باسم (أفاميا) نسبة إلى زوجته الفارسية في سوزا (بلاد عيلام) منذ أن كان قائداً من قواد الإسكندر أثناء فتوحاته ([٣٤]). من المعروف عن

([٣١]) زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧١.

([٣٢]) نفس المرجع ، ص٧١.

([٣٣]) عزت قادوس ، المرجع السابق ،ص ص٩–١٠.

([٣٤])كلينكل ، المرجع السابق ،ص ٦٧.

هذه المدينة إبان التواجد السلوقي – أنها كانت مربطًا لخيول السلوقيين وأفيال جيوشهم ، وبعدها تعرضت المدينة للاحتلال الروماني على يد القائد بومبييوس عام (٦٤ ق.م) ، الذي حطم قلعتها ، ثم ما لبثت أن استعادت ازدهارها ، واستمرت حتى الفترة البيزنطية ، لتعيش بعد ذلك تدهورًا ملحوظاً بسبب ابتعاد طرق التجارة الدولية عنها وكانت النهاية في احتلال الفرس لها عام ٥٤٠م .

مخطط المدينة

ترتفع المدينة حوالي مائة متر عن مستوى وادي الغاب ، ويحيط بها سور طوله٦،٤ كم (شكل ٦) ، وهناك سبع بوابات ضخمة للدخول إلى المدينة والخروج منها. أما داخل المدينة فمخططها عبارة عن مستطيلات ناتجة عن تقاطع ستة عشر شارعًا تتجه من الشمال إلى الجنوب مع ستة عشر شارعًا تتجه من الشرق إلى الغرب

يمتد الشارع المستقيم الرئيسي مسافة (١٧٧٤م) وعرضه ٣٧ مترًا بما في ذلك الأروقة التي كانت تحف بجانبيه .

يقطع هذا الشارع الرئيسي شارعان يصل كل منهما بين بابين من أبواب المدينة ، وكان الجنوبي منهما بطول ١١٥٠ م وتلتصق بأعمدة أروقته الجانبية قواعد لتماثيل الوجهاء، وكان متوسط العرض للشوارع الثانوية يبلغ حوالي ستة أمتار . بالقرب من الشارع الرئيسي (ديكومانوس) وفي مركز المدينة توجد الأجورا ، وبجوارها توجد الحمامات التي كانت في الوقت نفسه مجالس للخاصة والعامة من الناس ([٣٥]) أما المسرح فكان خارج أسوار المدينة حيث كان لانحدار الأرض نحو وادي الغاب ميزة خاصة في تأمين الميل اللازم للمسرح المدرج (يبلغ عرض خشبة المسرح وكواليسه ١٤٥م) ([٣٦])

دورا – أوروبوس (Dura - Europos)

تعود أهمية دورا – أوروبوس (الصالحية) ، إلى موقعها الجغرافي المتميز ، حيث تقع على حافة البادية المنحدرة نحو وادي الفرات ، وكانت تتحكم بالتجارة النهرية على الفرات ، وقد أقام سلوقس الأول قلعة مهيبة ، قام نيكاتور – وهو أحد قواده – ببناء حصن في هذا المكان أطلق عليه اسم أوروبوس (شكل ٧).

فإذن كان موقعها الجغرافي والاستراتيجي سبباً من أسباب ازدهارها ، فأيضًا كان أحد أسباب تعرضها للهجمات الأجنبية ، انطلاقًا من الإغريق أنفسهم ، ثم

مخطط المدينة

أقيم للمدينة سور طويل ذي أبراج ، وهو السور الغربي لصد المهاجمين القادمين من بادية الشام ([٣٧]) (شكل ٨) ويخترق منتصف ذلك السور باب ضخم وهو المدخل الوحيد إلى المدينة من هذا الجانب، وقد عرف هذا الباب بباب تدمر.

يبدأ الشارع الرئيسي (شكل ٨) من باب تدمر بعرض ١٤,٣ م ويمر بأسواق ظليلة وينتهي عند حافة وادي الفرات ، ويتقاطع معه شارعان رئيسيان

([٣٥])Frezouls, op.cit., p. 241, Fig . 6.

([٣٦]) كلينكل ، المرجع السابق ، ص ٦٩

([٣٧]) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

لتشكل هذه الشوارع المتقاطعة مخططًا شبكيًا([٣٨]) موزعا بين مستطيلات وتقع الساحة العامة أو الأجورا في وسط المدينة ، بحيث لا يختلف مخططها عن باقي المدن الهللينستية الأخرى ([٣٩]) إلى جانب معالم أخرى كالمسرح والحمامات وغيرها .هذا فضلاً عن الأكروبول ، وهو عبارة عن كتلة صخرية محاذية لشاطئ الفرات يطل على المدينة ، بسور طويل تخترقه ثلاثة أبواب معززة بأبراج ([٤٠]) .

بصري Bosra

تقع بصري في سهل خصيب هو امتداد للمنحدرات الجنوبية الغربية لجبل العرب وهي ترتفع حوالي ٨٠٠ م عن سطح البحر ، وقد تردد اسمها في النصوص المسمارية التي تعود إلى الألف الثاني ق.م ، ثم اختفت لتظهر من جديد بعد فتح الاسكندر المقدوني لبلاد الشام ثم مع السلوقيين ، حيث وصلت هذه المدينة إلى حالة ضعيفة في أواخر الألف الأول ق.م واستطاعت بصرى أن تعود إلى ازدهارها خلال حكم الأنباط ، وظلت ذات مكانة استراتيجية في المنطقة التابعة للعرب الأنباط إلى أن قضى عليهم الامبراطور تراجان في عام (١٠٦ م) فأصبحت منذئذ تحمل اسم (بصرى نوفاتراجانا) ([٤١])

وتكتسب بصرى الشام أهميتها من خلال خصوبة أراضيها ووقوعها على طريق التجارة العالمية فكانت محطة تجارية هامة بين الشمال والجنوب – بين دمشق والبحر الأحمر – وبين الشرق والغرب – بين الخليج العربي وسواحل جنوبي بلاد الشام – إضافة إلى امتلاك المدينة كميات وفيرة من المياه بفضل ثلوج جبل العرب .

مخطط المدينة

يأخذ سور المدينة شكلاً مستطيلاً ، ويبلغ سمكه حوالي أربعة أمتار ، وتعززه دعامات شبيهة بالأبراج ، وهناك أربعة أبواب رئيسية تخترق كل ضلع في أضلاع المستطيل ويعتبر الباب الغربي في حالة سليمة ويعود تاريخ إنشاءه إلى القرن الثانى الميلادي ، وهو يقودنا إلى الشارع الرئيسي (شكل ١٠) الذي يخترق المدينة باستقامة من الغرب إلى الشرق .

وعند نقطة تقاطع شوارع هامة مع هذا الشارع الرئيسي تقوم أربعة أعمدة كورنثية هي ما تبقى من معبد آلهة المياه في هذا المكان وينتهي الشارع الطولي المستقيم الذي كانت تحف به الأروقة في الجانبين ، في أقصى الشرق بقوس جميل

([٣٨])A. Barghouti , city planning in syria – Palestine in Hellenistic and Roman times . Diss., Chigago, 1974, p. 411, Fig. 102.

([٣٩]) Ibidem , p. 413, Fig, 164.

([٤٠]) ممفورد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣.

([٤١]) كلينكل ، المرجع السابق ، ص ٧٩.

مؤلف من ثلاث فتحات ، وهناك السوق العامة (الأجورا) ، وبقايا أطلال القصر الذي كان يقيم فيه حاكم المدينة ([٤٢]).

فيليبو بوليس (شبها Philippopolis)

تقع شهبا على أطراف جبل العرب ، وترتفع حوالي ١٠٥٠ م عن سطح البحر ، وهي على الجانب الشرقي من طريق دمشق – السويداء .

مخطط المدينة

يأخذ سور المدينة شكلاً مربعًا غير منتظم وهناك باب يخترق كل ضلع في أضلاع السور الأربعة (شكل١١)، لكن هناك باب ثانوي في الضلع الجنوبي. ويعتبر الباب الرئيسي في الجنوب في حالة جيدة .كانت الأروقة الظليلة تحف بجانبي الشارع الرئيسي الذي يتجه باستقامة من الباب الجنوبي إلى الباب الشمالي ، وما تزال بقايا البلاط البحري واضحة للعيان حتى يومنا هذا. وعلى مسافة قريبة تطل على الشارع الرئيسي بقايا الحمامات الكبرى في المدينة (شكل ١١) ويوجد بجانب المعبد الذي يعود بناؤه إلى عصر فيليب العربي) مسرح صغير، لا يتجاوز قطره الأربعين متراً، ويتراوح عدد صفوف المقاعد بين خمسة عشر إلى عشرين صفا ، لكن هذا المسرح يعود تأسيسه إلى الفترة الرومانية في المدينة ([٤٣]) .

دمشق (Damascus)

ذكر اسم دمشق في النصوص المسمارية القديمة المسطرة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وكانت دمشق ([٤٤]) في مطلع الألف الأول قبل الميلاد عاصمة لمملكة آرامية ، لكن كيف كانت إبان التواجد الإغريقي والهللينستي ؟

مخطط المدينة

يحيط بالمدينة سور طويل (شكل ١٢) ويخترق مخطط المدينة شارع رئيسي طولي يمتد من الشرق إلى الغرب ([٤٥]) وكانت هناك أروقة تكتنف جانبي هذا الشارع، ينتهي هذا الأخير في الشرق ليصب في الباب الشرقي ،وقد احتفظ هذا الباب بمعظم أجزائه ، ويتألف من ثلاث فتحات تعلوها الأقواس ، وقد احتفظت دمشق – في مخططها – بالمعالم الحضارية الموجودة في كل المخططات الهللينستية الأخرى (شكل ١٣) مثل الأجورا ([٤٦]) .

اللاذقية (Laodicea)

أسس هذه المدينة الملك سلوقس الأول في أواخر القرن الرابع ق.م وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى والدته ، وقد أعيد تجديدها في ظل الحكم الروماني في منطقة بلاد الشام .

مخطط المدينة

([٤٢]) بشير زهدي ، مدينة بصرى ، الحوليات السورية ، مجلد ٦ ، ١٩٥٦ ، لوحة ٥ .

([٤٣]) كلينكل ، المرجع السابق ، ١٨٩ .

([٤٤]) كلينكل ، المرجع السابق ، ص ٩٠.

([٤٥])Barghouti , op.cit ., p. 418 Fig. 109.

لا يختلف مخطط اللاذقية عن مخطط مدينة أخرى ([٤٧]) فيكاد يشبه مخطط مدينة دورا – أوروبوس ، بحيث نجد الشارع الطولي (Decumanus) يجتاز المدينة من الشرق إلى الغرب والآخر (Cardo) يمتد من الشمال إلى الجنوب ، ويتقاطع هذان الشارعان بزوايا قائمة (شكل ١٤) ويحيط بالمدينة سور محصن يحتوي على عدة أبراج إلى جانب القلعة (Citadelle) التي تشرف على المدينة ، وقد استنتج Sauvaget ([٤٨]) بعد دراسته لمخطط اللاذقية أن الشارع الذي دعاه بالشارع (ب) كانت له أروقة جانبية استقر فيها سوق دائم ، إلى جانب هذا ، نجد مسرح المدينة الذي جدد فيما بعد ، ويعتبر ميناء اللاذقية من الأماكن التي لعبت دوراً هاماً في التجارة الإقليمية والدولية ، ولعل منطقة الميناء أكسبت أهمية تجارية قوية بالنسبة اللاذقية إلى درجة أنها وصلت إلى أن تكون عاصمة للأقاليم السورية بدلا من أنطاكية فى بعض الفترات.

تدمر (Palmyra)

تتوسط تدمر ([٤٩]) الطريق الواصل بين الفرات – الذي كان عصب المواصلات في شرق سورية – وسواحل بلاد الشام التي تكثر على شواطئها الموانئ والبلدان ازدهرت المدينة في مطلع احتلال الرومان لبلاد الشام ، فى حوالى سنة ٦٣ ق.م ، حيث أصبحت ولاية من الولايات الرومانية إلا أن ما يميز تدمر عن باقي المدن الأخرى ، هو احتفاظها بشخصيتها واستقلالها سواء إزاء الفرس أو إزاء الرومان أنفسهم ، لكن ما أن بدأت السنون الأولى بعد الميلاد حتى تمكن الرومان من السيطرة الكاملة على هذه المدينة. وتعتبر تدمر نموذجًا فريدًا في تخطيط المدن الهللينستية في الشرق ([٥٠])

مخطط المدينة

يحتوي مخطط تدمر على شارعين متعامدين : شارع رئيسي يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة ١١٣٥ م ، ([٥١]) يتقاطع مع شارع آخر يجتاز المدينة من الشمال إلى الجنوب لمسافة ٣٧٥ م (شكل ١٥) .ويحيط بالمدينة سور عرف بـ (سور زنوبيا) ([٥٢]) يشبه الشكل المستدير في جهته الشمالية ، ويبلغ محيطه اثنا عشر كيلو مترًا وكان لهذا السور أبراج مربعة الشكل تدعمه أبراج مستديرة ، وكان يفصل بين برجين بمسافة ٣٧ مترًا تقريباً .

والأجورا في تدمر عبارة عن مساحة مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها ٨٤ م ، وعرضها ٧١ مترًا ([٥٣]). وتقع قرب المسرح ، جنوب الشارع المعمد المتجه من

([٤٦])Ibidem, p. 427, Fig. 108.

([٤٧])Frezouls, op.cit ., P.238, Fig. 2.

([٤٨])J.Sauvaget, Le plan de Laodice sur mer.p. 64.

([٤٩]) كلينكل ، المرجع السابق ص ٩٧ .

([٥٠])Frezouls, op, cit ., p. 240, Fig. 5.

([٥١]) بشير زهدي ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ٦، ١٩٥٦ ، دمشق ص ٥٣.

([٥٢]) نفس المرجع ، ص ٥٤ .

الشمال إلى الجنوب .وفي الساحة العامة أعمدة تشير إلى وجود أروقة ، وكان يزين المساحة – غالبًا – تماثيل لمن خلدتهم المدينة مقابل خدماتهم لها ، ويعتقد وجود نحو مائتي تمثال للأعيان في هذه الساحة (٥٤) .

ويوجد المسوح في الجهة الجنوبية من الشارع الرئيسي بين الساحة العامة والقوس ، ويحيط بالمسرح رواق نصف دائري يطابق شكل المسرح ويعتبر معبد (بعل) من معالم تدمر الحضارية الهامة ، وهو عبارة عن شكل مربع ، طوله ٢٣٥م (٥٥) (شكل ١٦) ذو بناء مرتفع ، أعمدة ضخمة ، وله مساحة ذات أروقة مزينة تعلوها تيجان من الطراز الكورنثي. ومن ضمن المؤسسات العامة التي لم يهملها مهندسو تنظيم المدينة– عند تخطيطهم مدينة تدمر– مجلس الأعيان الذى يتخذ شكل اعوجاج المسرح (٥٦) ويجاور الساحة العامة. كما روعي في تخطيط المدينة الشروط اللازمة لحياة سكان هذه المدينة وازدهارها ، من خلال تزويد المدينة بالمياه وذلك ببناء قنوات لتمديد السكان بالمياه . بقي أن نشير– أيضًا –إلى المدافن التي تقع خارج المدينة وتتكون من غرفة تحت الأرض وكانت هذه المقابر تأخذ شكل أبراج (٥٧)

مدينة أنطاكية (Antiochia)

أ – انطاكية في الفترة السلوقية

كانت أنطاكية ، عاصمة المملكة السلوقية ، وكانت إحدى أهم المدن الأربعة في المملكة السلوقية ، وأنطاكية ذات شهرة كبيرة في العصر الهللينستي في آسيا الغربية وبالتالي فهي نموذج للمدن الهللينستية في بلاد الشرق .

دخلت أنطاكية – تاريخياً– في حضن السيطرة السلوقية ، إثر الانتصار الذي حققه سلوقس على حساب أنتيجونوس ، في موقعة أبسوس في أغسطس في عام ٣٠١ ق.م ، وقد رويت عدة روايات عن تأسيس أنطاكية لكنها ذات بعد أسطوري لكن ما يستنتج منها هو أن اسم المدينة اقترن بأنطيوخوس ، بابن سلوقوس. وقد تولى المهندس المعماري زيناريوس إقامة الأسوار وتخطيط الشوارع (٥٨). وكانت انطاكية تتألف من حيين منفصلين أحدهما للنزلاء الأوروبيين والآخر للأهالي السوريين .

ويعتقد داوني (٥٩) أن لك لحي من هذين الحيين سوره الخاص وبالتالي فإن الحي الخاص بالأوربيين كان يشغل حوالي ٢٣٠ فدانا تقريباً فى حين أن الحي المخصص للأهالي المواطنين كان أصغر من ذلك في المساحة إذ كان يبلغ نحو ١٨٥ فدانًا .

---

(٥٣)Stancky , Palmyre, Guide archeologique, without Date..

(٥٤) الحوليات الأثرية السورية – المرجع السابق ، ص ٦٠.

(٥٥) نفس المرجع ، ص ٦٠ .

(٥٦) نفس المرجع ، ص ص ٦١–٦٢ .

(٥٧) نفس المرجع ، ص ٦١–٦٢ .

(٥٨) داوني ، المرجع السابق ، ص ٤٨.

ويرى سوفاجيت (Sauvaget) ([٦٠])أن أسوار المدينة قد بنيت وفق تصميم مستقيم الأضلاع. ومن خلال مخطط المدينة ، يتضح أنها بنيت وفقاً للتخطيط الشبكي الذي يرتبط باسم هيبوداموس من ميليتوس. وكما أسلفنا في الجزء السابق – عند حديثنا عن المدن الهللينستية – الشرقية فإن نظام توزيع الشوارع في هذه المدن ، لا يختلف عن تخطيط أنطاكية وخاصة مدن ، مثل (أفاميا ، دورا ، أوروبوس ، دمشق ، اللاذقية) فنكاد نجد تشابهاً ملحوظاً بين مخطط اللاذقية ومخطط أنطاكية وأيضًا بالنسبة لمخطط الاسكندرية كأن مصمم هذه النماذج واحد([٦١]).

ب- مخطط أنطاكية

تبلغ أبعاد وحدات المباني في أنطاكية (٣٦٧ × ١٩٠) قدمًا ويبدو أن المدن الأربع التي أسسها سلوقس شمال غرب سورية يمكن اعتبارها نموذجًا لمدن هللينستية في آسيا في عهد الإسكندر وخلفائه ([٦٢]) .

وقد كان سكان أنطاكية ذوي انتماءات عرقية مختلفة ، فإلى جانب السكان السوريين الأصليين الذين يقطنون في حيهم الخاص – كما أعتقد بذلك داوني– هناك المقدونيون من جنود سلوقس المتقاعدين ، إضافة إلى وجود عنصر بشري هام من عناصر المدينة كان يتألف من أبناء أثينا الذين قدموا من أنتيجونية وأعيد توطينهم في المدينة الجديدة ([٦٣]) وكان يوجد أيضًا عدد من اليهود ربما كانوا من الجنود المرتزقة " الذين تقاعدوا بعد العمل العسكري في جيش سلوقس .

ولهذا فأنطاكية ، مدينة متعددة الثقافات ، وذات نمط جرت عليه سياسة السلوقيين وذلك بتوطين المقدونيين والإغريق في أماكن ذات بعد استراتيجي لضمان سلامة نظام حكمهم مما ولد الاهتمام بالثقافة والشخصية المحلية بالنسبة للسكان السوريين. وقد تبنى المهندس الذي نظم مدينة أنطاكية المخطط المنتظم الذي ساد في العصر الهللينستي باعتباره مخططاً يختزل تجارب عدة (اتروريه ، أغريقية ، شرقية).

ومن خلال المخطط (شكل ١٧،١٨،١٩) يتضح الشارع الرئيسي الذي يمتد من الشرق إلى الغرب بمحاذاة مجرى نهر العاصي بطول ستة كيلو مترات ونصف ([٦٤]) وكان هذا الشارع مرصوفًا بالأحجار الجرانيتية المصرية ، ويتقاطع هذا الشارع في وسطه مع شارع آخر يمتد من الشمال إلى الجنوب حتى يصل إلى ضفة النهر إضافة إلى شوارع جانبية. وقد لاحظ لافدان Laredan ([٦٥]) أن الجزيرة التي يحيط بها نهر العاصي ،والتي كانت تشكل حياً من أحياء أنطاكية لها شكل شبه مستدير وتقسم إلى أربعة أقسام متساوية بواسطة شارعين متعامدين . ولاحظ أيضًا أن الشوارع تؤدي إلى خارج المدينة ، مثل المخطط السلوقي المعروف في مدن

([٥٩]) نفس المرجع ، ص ٤٩.

([٦٠])J. Sauvaget, "ALES" 1941, Paris . P. 43. " Leplan antique de Damas",Syria, XXX1,1949,pp.339-345,365.

([٦١]) قارن بين الشكلين (١٤) و (١٩).

([٦٢])Barghouti, op . cit., p. 128 .

([٦٣]) داوني ، المرجع السابق ، ص ٥٤.

([٦٤]) بشير زهدي ، الحوليات السورية ، ١٩٥٦ ، ص ٥٤.

سلوقية أخرى ([٦٦]) وقد روعي أثناء تخطيط المدينة وضع الشمس وشروقها بحيث تم توجيه زوايا مخطط المدينة نحو الشمس([٦٧]).

١. تحصين المدينة

من الأشياء التي تثير الاهتمام الأول من قبل مهندسي تنظيم المدن ، هي تحصين هذه المدن. فنظرة إلى سور أنطاكية تعطينا تصورًا واضحًا لضخامة هذا المشروع وأهميته في عملية التخطيط. ويرى Vita Pinto([٦٨]) أن سور أنطاكية المسمى بسور (تيبريوس) هو السور ذاته الذي بناه ملك سوريا (أنطيوخوس ابيفانيس ١٧٥ – ١٦٤ ق.م) إلا أنه يحتمل أن يكون قد اتسع في جهة الجنوب من جهة سيليبوس (جبل أنطاكية) وذلك لحماية المدينة جيدًا في هذه الجهة ([٦٩]). وسور المدينة مقوى ومدعم بأعمدة بين كل عمود وآخر مساحة قصيرة ، وفي كل زاوية من زواياه توجد قلعة أو برج للمراقبة وكان للحي الرابع الذي يحيط به نهر العاصي سور خاص به أيضًا (انظر مخطط أنطاكية).

٢. الوحدات السكنية

شهدت المدن السورية توسعًا تمثل في ازدياد عدد أحيائها و وحداتها السكنية وخاصة في العصر الهللينستي ،وتصل أبعاد الوحدات السكنية في أنطاكية نحو (٥٨ × ١١٢م) ([٧٠]) وهذه الوحدات مستطيلة الشكل تتخللها شوارع طويلة، وكل شارع كبير تتفرع عنه شوارع صغيرة (جانبية) ومتقاطعة معه ، وهذه الطريقة في التخطيط كانت مقترحة خلال المرحلة السلوقية وكل هذه الوحدات السكنية أو غيرها متساوية مسافة، فالمساحة بين كل بلوك وآخر متساوية مع باقي المسافات بين الوحدات الأخرى ، وهكذا ([٧١])

١- الأجورا (السوق)

بنيت الأجورا بعيدة عن الشارع الرئيسي (شكل ١٩)، وفي المركز التجاري ضمن الحي الذي أسسه سلوقس الأول على مقربة من النهر . لكن في عهد

([٦٥])T. Laveden , Histoire de l'architecture arabaine , in : AAAS, 6, 1956, p.52.Pl.5.

([٦٦])Barghouti , op.cit., p. 130.

([٦٧]) بشير زهدي ، الحوليات السورية ، ١٩٥٦، ص ٥٤.

([٦٨]) نفس المرجع ، ص ٥٤.

([٦٩]) نفس المرجع ، ص ٥٥.

([٧٠])Barghouti, op.cit., pp. 129 – 131.

([٧١])Ibidem.

([٧٢]) داوني ، أنطاكية القديمة ، ص ٧٩.

([٧٣]) ممفورد ، المرجع السابق ، ١٥٢ (١١).

([٧٤])Frezouls, op.cit., p. 243, Fig. 10.

([٧٥])Ibidem, p. 243, Fig. 11.

أنطيوخوس أضاف هذا الأخير حيًا جديدًا نظرًا لزيادة عدد السكان ، أطلق عليه اسم أبيفانيا(Epiphania) وكان هذا التوسع على منحدر جبل سيلبيوس بجوار مركز الاستقرار الأصلي الذي أنشأه سلوقس على الأرض المستوية بالقرب من النهر ([٧٢]) وقد أضاف أنطيوخوس سوقًا أخرى بحيث أصبحت أنطاكية تملك مركزين للأجورا ، كما هو الشأن بالنسبة لميلتيوس ([٧٣]) وبرجامون ([٧٤]) وبيريه ([٧٥]). ولعل هذا ما كان قد طرحه أرسطو من ضرورة وجود أجورتين لكل مدينة في موقعين مختلفين تكون إحداهما " أجورا حرة " يحتفظ بها خالية من جميع السلع التجارية ، وتخصص لألوان النشاط السياسي والتربوي التعليمي ، وتكون الأخرى " أجورا للتجارة " وتخصص للاحتياجات التجارية،فيحدد مكانها في أكثر المواقع ملائمة لهذا الغرض ([٧٦]) .

٢- المسرح

عرفت منطقة الشرق القديم المسارح في العصر الهللينستي ، لكن سنجد هذه المسارح ذات صبغة حضارية هامة خلال العصر الروماني الذي يعتبر عصر ازدهار المسارح في الشرق، ففي كل مدينة سورية مسرح تختلف مساحته بحسب أهميته واستنتج فريزول ([٧٧]) في دراسته أن جميع المسارح السورية الباقية هي مسارح تعود إلى العصر الروماني ، لكننا نود أن نتساءل أين هي هذه المسارح الهللينستية ؟ وهل أنطاكية عرفت مسرحاً بالفعل ؟ إذا أخذنا –بعين الاعتبار – أن ما وصلت إليه هذه المدينة من ازدهار قد يفيد هذا الاعتقاد ، فربما أن المسرح الروماني حل محل المسرح الهللينستي ؟

فمن خلال نتائج الحفائر التي أقيمت في أنطاكية ، نخلص إلىأن مسرح هذه المدينة بني في عهد يوليوس قيصر (١٠١ – ٤٤ ق.م) ولكن أعيد بناؤه في عهد تراجان (٩٨-١١٧ م). ولم تشر هذه الدراسات إلى مسرح يعود إلى العصر الهللينستي .

فمن خلال نتائج الحفائر التي أقيمت في أنطاكية ، نخلص إلىأن مسرح هذه المدينة بني في عهد يوليوس قيصر (١٠١ – ٤٤ ق.م) ولكن أعيد بناؤه في عهد

([٧٦]) داوني ، المرجع السابق ، ص ٧٩-٨٠ .

([٧٧])Freouls , E., les Annales Atchologiques de Syrie , II , 1952, p.49.

([٧٨]) داوني ، أنطاكية القديمة ، ص ٧٩.

([٧٩]) نفس المرجع .

تراجان (٩٨-١١٧ م). ولم تشر هذه الدراسات إلى مسرح يعود إلى العصر الهللينستي .

٣- المعابد والحياة الدينية

عند دخول الأسكندر إلى الشرق أدخل معه اعتقادات إغريقية، في الوقت الذي ظل فيه السكان المحليون محافظين على اعتقاداتهم، إلى جانب الحرية الدينية التي تبناها الإسكندر وخلفاؤه. فأصبحت الاعتقادات الشرقية تؤثر على المقدونيين والإغريق. استطاع أنطيوخوس الرابع إبيفانس (١٧٥ – ١٦٣ ق.م) أن يقوي مركز الديانة الهللينستية وعبادة الحاكم والقضاء على النزعات الانفصالية التي كانت تشجع عليها ديانة اليهود من رعاياه. وانطلاقًا من هذه السياسة – كما يعتقد داوني ([٧٨])– قام أنطيوخوس الرابع بمصادرة أملاك المعبد التي كان من المحتمل استخدامها لتمويل حركة المعارضة أو الثورة. ومن خلال استراتيجية السياسة ، أبدى أنطيوخوس اهتماما كبيرا بعبادة الحاكم ، مقارنة بالملوك السلوقيين السابقين لعصره وقد قام بنشر عبادة كبير الآلهة زيوس ، رب الأرباب ، زيوس الأوليمبي ، وهو الذي كان يتشبه به ([٧٩]) وقد تم العثور على عملة في عهد أنطيوخوس تحمل صورة زيوس ([٨٠]) .وقد أقام أنطيوخوس في ساحة الأجورا الجديدة (بوليوتريون) أو دارًا لمجلس الشورى وهو يشبه إلى حد كبير البوليوتريون الموجود في مدينة ميلتيوس ، ولسنا ندري هل هذه صورة من تلك التي أقيمت في أنطاكية أم العكس ، وقد وجدت عبارتان منقوشتان على إحدى الجدران لقناة مقامة على إحدى القناطر ، وتدل على أن المهندس المعماري الروماني المعروف كوستيوس هو الذي أسند إليه أنطيوخوس أمر إنشاء معبد زيوس الأوليمبي في أثينا. ويعتقد داوني ([٨١]) أيضًا أن هذا المهندس هو الذي قام كذلك بوضع تصميم معبد أنطيوخوس لجوبيتر كابيتولينوس في أنطاكية ويلاحظ أن السلوقيين– جريًا على العادة التي استنها الإسكندر الأكبر– أنشأوا لأسرتهم عبادة رسمية فقام أنطيوخوس الأول برفع سلوقس الفاتح إلى مرتبة الآلهة بعد وفاته. وقد سار على هذا النهج كل من أنطيوخوس الثاني ، وأعاد تنظيمه انطيوخوس الثالث . ولم يكن هذا دليلاً على تعبير ديني خالص بقدر ما كان إعطاءً للسلوقيين مشروعية حكمهم السياسي وبالتالي الولاء لهم. لكن مع دخول الرومان إلى انطاكية فقد أخذت المسألة الدينية مجرى آخر و وصلت العلاقات الشرقية الغربية ذروتها عقائديًا .

٤- الحمامات

([٨٠]) نفس المرجع ص ٩٦.

([٨١]) نفس المرجع ، ص ٧٩.

([٨٢]) Downey , the water supply of Antioch on the Orontos in the antiquity , in : AAAS. II, 1952.p.281.

([٨٣])Lassus , les Fouiles d'Antioche, Gazette des Beaux Arts, 1933, p.26.

كان بناء الحمامات الإغريقية في سورية والشرق عامة يدخل ضمن التخطيط الأولى لإنشاء أو تجديد مدينة ما . ولم تكن الغاية من بنـــاء هـــذه المؤسســـة هـــي التنظيف أو التدليك أو ما شابه ذلك بل كانت تحمل أكثر من معنـــى (التربيـــة – التعليم – الجدال السياسي ٠٠٠) ولم يصلنا عن حمامات هللينستية أي شئ ســـوى تلك التي أسسها الرومان .ويذكر داوني ([٨٢]) فضل يوليـــوس قيصـــر (١٠١ – ٤٤ ق.م) في تحسين وتجديد حمامات أنطاكية التي قد قام بتوســـيع بعضـــها كـــل مـــن الامبراطور كاليجولا (٣٧-٤١ م) والإمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨ م).

٥- ملاعب سباق الخيل (السيرك)

لم ينس مهندس تنظيم المدن ملاعب سباق الخيل التي أخذت أهمية خاصة في كل من المدن القديمة (أنطاكية والسويداء) وفي المدن الأحدث منها (فيليبوبوليس وبصرى). وتقع هذه الملاعب غالبا خارج المدينـــة وتتـــألف مـــن أرض واســـعة مستطيلة الشكل ولكن من سوء الحظ لم يبق في سورية أي ملعب قديم ، ومع ذلـــك فقد تبين من خلال الحفريات الأثرية في أنطاكية أن أحدث الملاعب فيها يبلغ طوله (٥٠٢ م) وعرضه (٧١- ٧٢ م) ويحيط بطولي الملعب مقاعد للمشـــاهدين ([٨٣]). ويقع السيرك (Circus) شمال المدينة (شكل ١٩) إلى جانب القصـــر، فـــي شـــبه جزيرة صغيرة حيث يحيط به نهر العاصي .

٦- القصور

تحدثنا الروايات الإغريقية وغيرها ، أن المقدونيين والسلوقيين قد بنوا عـــددًا من القصور في كثير من المدن السورية .وبالنسبة لأنطاكية لـــم تكشـــف الحفـــائر الأثرية بعد ، ما إذا كانت هناك قصور تعود إلى الفترة الهللينستية وما وصلت إليـــه أنطاكية من ازدهار حضاري ، يدل دلالة واضحة على وجود قصور ذات مســـتوى رفيع .

٧- بوابات المدينة

لقد روعي في تخطيط المدينة الهللينستية في الشرق وجود بوابات للـــدخول إلى المدينة وللخروج منها رغم أن ذلك كان معروفاً في المدن الشرقية قبل فتوحات الاسكندر . وكانت هذه البوابات توجد في أطراف الشوارع الرئيســـية وكـــان لهـــا وظيفتان وظيفة دفاعية، لهذا كان يعني بتقويتها عناية كبرى و وظيفة تجميلية ([٨٤]). وأنطاكية لا تخرج على هذا النمط فهناك عدة بوابات (شكل ١٨) : بوابـــة شـــرقية (Eastern Gate) التي يتم الولوج عبرها إلى الشارع الرئيسي الطولي لنصل إلـــى البوابة الوســـطى(Middle gate) ثـــم تســـتمر الطريـــق إلـــى البوابـــة المســـماة (الشاروبيم)(Cherubim gate) في اتجاه منطقة (دفنة) حيث نجد آخر بوابة وهـــي بوابة (دفنة) التي تؤدي إلى اللاذقية في الجهة الشمالية وعلى ضفاف نهر العاصـــي

([٨٤]) بشير زهدي ، مجلة الحوليات السورية ١٩٥٦، ص ٦٥.

نجد بوابة ذات أربعة ممرات ، حيث يتم الدخول إلى القصر ومن ثم عبر جسر إلى شارع رئيسي عرضي حيث يتقاطع هذا الأخير مع الشارع الطولي الرئيسي.

٨- الجسور :

كان من أهداف مخطط مدينة انطاكية تسهيل حركة المرور مما جعلهم يشيدون جسورًا أو قناطر حتى تساعدهم في تحقيق ما يهدفون إليه وكان في المدينة خمسة جسور (شكل ١٨) تصل المدينة القديمة بالحي الجديد الذي يحيط به نهر العاصي .

٩- تزويد المدينة بالمياه

أعار مهندسو المدينة اهتمامًا خاصًا لأمر تزويدها بالمياة . إذ لا شك أن الماء حاجة ضرورية لا بد منها لاستكمال الشروط اللازمة لحياة المدينة وازدهارها وازدياد سكانها.فكانت المياه تصل إلى أنطاكية عبر قنوات من دفنة ولا أدل على اهتمام الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في أنطاكية بتزويد المدينة بالمياه من وصف داوني([٨٥]) للأعياد والمناسبات التي يحضرها القادة أنفسهم بمناسبة وصول المياه إلى المدينة. إضافة إلى هذا فأنطاكية تحفل بميزات طبيعية تجعلها قادرة على تزويد الأرض وسكانها بالمياه .

١٠- النيمفايوم (Nymphaeum)

كان لمأخذ الماء (النيمفايوم) شكلاً بنائيًا له وظيفتان : الأولى هي سد حاجة الناس من المياه. والثانية : استعماله كعنصر جمالي ([٨٦]). وكانت النيمفايوم في أنطاكية تحتل موقعاً هامًا أي وسط الشوارع تقريبا(شكل ١٩) ويقع بالتحديد عند بدء الشارع الرئيسي الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال.وقد أشاد الروائي(ليبانيوس) –في خطبه عن أنطاكية– بغزارة مياهها ويتضح من خلال مخطط مدينة أنطاكية أنها لا تختلف بشكل كبير عن المدن الهللينستية – الشرقية لكنها وصلت إلى نهضة عمرانية وتنظيمية ، وأن اهتمام مخططي هذه المدينة قد انصب على كل الجوانب المتعلقة بالدفاع عن المدينة حيث بنوا الأسوار والقلاع الحصينة كما اهتموا براحة السكان فقاموا بتسهيل المرور بشق الشوارع الرئيسية والثانوية وبناء الجسور والقناطر ومن أجل ثقافتهم شيد المسرح والملاعب... ولأمورهم ومشاكلهم وحاجياتهم فأسسوا الأجورا والساحات العامة ومجلس الأعيان ، وأيضًا اهتموا بالجانب العقائدي فبنوا المعابد مع احترام العقائد الأخرى كما أبدوا تقديرًا كبيرًا لمداخل المدينة فأنشئوا البوابات والأبراج وغيرها . وهكذا نرى أن تخطيط المدن الشرقية في العصر الهللينستي بات يفوق حتى تخطيط المدن الإغريقية نفسها، وهذا ما سوف نلاحظه عند حديثنا عن مدينة الإسكندرية .إن هذا العمل لم يساهم فيه المقدونيون والسلوقيون فقط وإنما أيضًا السكان المحليون بثقافتهم المتراكمة عبر الأجيال عرفوا أولى بوادر المدنية في العالم القديم . ولولا ما تحفل به هذه المدن

([٨٥]) ج . داوني ،الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ١، ١٩٥١، ص ٢٨٢ .

([٨٦]) بشير زهدي، الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ٦، ١٩٥٦ ، ص ٦٦.

الشرقية من تكوين جغرافي وطبيعي وتراكم تراثي لما استطاع المقدونيون والسلوقيون والرومان جعل هذه المدن آية من الإبداع الحضاري ،لا زالت آثاره بينة إلى يومنا هذا .

مدينة الإسكندرية

إن الموقع الجغرافي الاستراتيجي الهام الذي تحتله مصر جعلها عرضة للأطماع، وإذا كانت هذه الأطماع تمكنت من امتلاك مصر سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا فإنها لم تستطع ذلك على المستوى الثقافي والحضاري بشكل عام ، ذلك أن هذه الأطماع الأجنبية كانت تجد أمامها إنسانًا يحمل تراكمًا تراثيًا معرفيًا و دينيًا غير قابل للاستلاب إلا الإغريق الذين استطاعوا التأثير على هذا الإنسان المصري دون أن يفقد هذا الأخير شخصيته وخصوصيته والتي تتضح في سلوكه العقائدي أو في إبداعاته الفنية والجمالية.

كان دخول الإغريق إلى بلاد مصر إعلانًا لمرحلة هامة في تاريخ الإنسان المصري، تلك هي المرحلة الهللينستية التي تعكس التفاعل والتلاقح والتمازج بين حضارتين مختلفتين : حضارة مصرية عريقة وحضارة إغريقية متطورة .

من هذا المنطلق سيكون حديثنا عن مدينة الإسكندرية كمدينة شهدت هذا التلاقح الحضاري العظيم وكنموذج جيد لاستقراء اللحظة الهللينستية بكل خصوصيتها الحضارية.

وسوف نركز هنا على مخطط مدينة الإسكندرية ، والتي قد لا تختلف عن النماذج السابقة الذكر في المدن الهللينستية الشرقية إلا أن هذه المدن احتفظت بميزات لا نجدها حتى في المدن الإغريقية نفسها.

إن انتباه الإسكندر المقدوني إلى هذه المدينة لم يكن اعتباطًا أو محضًا للصدفة بل كانت هناك ظروف أخرى ساهمت في ذلك ولعل أهم هذه الظروف تلك التي تتعلق بالمدينة ذاتها قبل دخول الإسكندر إليها، فالموقع الجغرافي والأصالة الفرعونية والتراكم الحضاري... كلها أسباب جعلت من هذه المدينة مكانا مهيئًا لأن تكون عاصمة من أفضل العواصم في العالم وقتئذ.

١- الموقع والتأسيس :

سبق وأن أشرنا إلى أهمية موقع مدينة الإسكندرية خاصة ، ومصر عامة باعتبارها نقطة التقاء تجاري عالمي. ومن ميزات هذا الموقع الذي تحتله الإسكندرية وأهمها سهولة وصول مياه الشرب إليه وقربه من بحيرة مريوط، ومن جزيرة صغيرة كانت تقع تجاهه في البحر ، ولا تبعد عن الشاطئ بأكثر من ميل واحد وهي التي عرفت باسم جزيرة فاروس هذا بالإضافة إلى جفاف المكان وارتفاعه عن مستوى الدلتا وبعده عن الرواسب التي يأتي بها فرع رشيد ([٨٧]) إضافة إلى هذا فموقع المدينة شرق البحر المتوسط، جعلها تشرف على طرق تجارية ملاحية هامة في منطقة البحر المتوسط وأيضًا كونها نقطة التقاء وإشعاع حضاري بين عالمين

([٨٧]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ١٣ ، راجع أيضًا : عزت قادوس المرجع السابق، ص ٥-٦.

([٨٨]) لطفي عبد الوهاب " الإسكندرية في العصر البطلمي ، تاريخ الإسكندرية ص ٢٢ .

متباينين ([٨٨]) أحدهما ينتمي إلى العالم الشرقي بنظمه ومعتقداته وتراثه، والآخر غربي مختلف (مقدونية وبلاد اليونان). هذا الموقع المتميز لعب دورًا هامًا في عملية التلاقح الحضاري ، ليس فقط مع الإغريق كطرف آخر، بل أيضًا مع أطراف أخرى ،إلى جانب الحضارة الفرعونية العريقة كانت هناك حضارات أخرى كالفينيقية والفارسية.

إن العلاقات المصرية الإغريقية لم تبدأ مع مجئ الإسكندر إلى الشرق بل كانت هناك إرهاصات قبل قرون عديدة ، جسدتها التجارة خاصة عن طريق تجار ميليتوس الإغريقية الذين يقومون بدور الوساطة بين المملكة الليدية وشعوب البحر المتوسط ([٨٩]) ومن ثم أسسوا محلة في دلتا النيل وفي أواخر القرن الثامن قبل الميلاد والتي عرفت فيما بعد باسم نقراطيس ([٩٠]) ."وظلت العلاقات تجارية محضة إلى أن تحولت إلى سياسية ، عرفت أوجها مع دخول الإسكندر الذي انتصر على قوات الملك الفارسي ، ووصل بعد ذلك إلى مصر في ٣٣٢ ق.م ليبدأ بذلك عهدًا جديدًا على المستوى الحضاري الإنساني، وتكون سنة ٣٣١ ق.م بداية تأسيس مدينة الإسكندرية

ومهما كانت الأهداف من وراء تأسيس هذه المدينة، سواء أكانت أهدافًا تجارية أو عسكرية أو حضارية ، فقد كان الاهتمام الذي أبداه الإسكندر وخلفاؤه يفوق الوصف، والدليل على ذلك مخطط المدينة ذاتها والذي يعتبر من النماذج المتميزة– إلى جانب أنطاكية– ضمن مخططات المدن الهللينستية (شكل ٢٠)٠

مخطط المدينة :

يذكر استرابون ([٩١]) أن الإسكندرية تأسست على نفس المكان الذي كانت تحتله قرية مصرية تسمى راقودة إلى جانب قرى صغرى أخرى يسكنها الصيادون

([٨٩]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق، ص ٩.

([٩٠]) A. Bernard , Alexandrie la grande, Arthaud, Paris, P. 30.

([٩١])Strabo, Geogroprhika XVII, 6.

([٩٢])Ibidem.

([٩٣])Arrianos, Anabasis Alexandrou 1,5.

([٩٤]) Strabo , Geographika XV, 6.

وكانت إحدى الحاميات العسكرية ([٩٢]) تقيم في راقودة بشكل دائم بقصد رد الأطماع الأجنبية عن النزول بوادي النيل .

إن مخطط الإسكندرية لا يختلف كثيرًا عن مخططات مدن بلاد الشام التي عاشت نفس التجربة الهللينستية وقد أثبتت الحفائر الأثرية المبكرة التي أجريت في موقع الإسكندرية إن مخطط المدينة روعي فيه الطريقة التي عرفت في بناء المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق. م كمدينة بيرايوس.

وقد اعتمد مهندس المدينة دينوكراتيس ([٩٣]) في مخططه على اتساع الشارعين الرئيسين الذى يزيد على ثلاثين ياردة ([٩٤])حيث يمتد الأفقي منهما من بوابة كانوب " أبي قير " في الشرق إلى باب سدرة في الغرب (طريق كانوب) بينما الطريق الرأسي يمتد من باب الشمس عند بحيرة مريوط في الجنوب الشرقي إلى بوابة القمر قرب بداية الجسر الرابط بين الشاطئ وجزيرة فاروس (شكل ٢١) ويتقاطع الشارعان الرئيسان – الطولي والعرضي –في الساحة الكبيرة (الميدان) للمدينة ، في حين كانت هناك شوارع ثانوية موازية للشارعين الرئيسيين ([٩٥]) ويعتقد محمد عواد حسين ([٩٦]) أن هذه الشوارع كانت تحمل أسماء أفراد الأسرة الحاكمة معتمدًا بذلك على إحدى الوثائق البردية .

كثيرا ما نعتمد على الكتابات الكلاسيكية في انعدام الدليل الثري في مسائل تتعلق بتخطيط المدينة ، وإن ظل تعاملنا مع هذه المصادر يشوبه الحذر والحيطة إلا أن هذا لا يمنع الباحثين من تصور شامل لكيفية تخطيط المدينة .

إن هذا الكلام يصدق على أسوار المدينة ، فرغم أن المؤرخين اليونانيين أمدونا بمعلومات جيدة عن هذه الأسوار المحيطة بالمدينة ، لكن في قراءتنا للمخططات الهللينستية المنتشرة في مناطق كثيرة في الشرق القديم ، نستنتج أن الإسكندرية بكل تأكيد كانت محاطة بعدة أسوار ومحصنة بأبراج ، وما يؤكد هذا الاستنتاج أهمية موقع المدينة المطل والمشرف على المنطقة الشرقية من البحر المتوسط محور التجارة العالمية وقتئذ.

وقد روعي في تخطيط المدينة تناسق المباني السكنية التي تأخذ شكل بلوكات Blocks تخترقها شوارع فرعية ، وهذه الوحدات السكنية ، عادة ما تكون مستطيلة

([٩٥]) عزت قادوس ،المرجع السابق ، ص ٥٣-٥٦.

([٩٦]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ١٦.

([٩٧]) Strabo , Geographika XVII, 8.

([٩٨]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ١٦.

([٩٩]) Strabno, Geographika XVII,16.

([١٠٠]) Strabno, Geographika XVII, 06.

بحيث تكون المسافة متساوية بين كل بلوك وآخر وهذا الشكل من التخطيط كان سائدًا في المدن الهللينستية كلها تقريبًا . ([٩٧])

من المعروف أن مهندسي المدن الهللينستية قد اهتموا كثيرا بتزويد السكان بالمياه وهذا ينطبق كذلك على تخطيط مدينة الإسكندرية فكانت المياه تصل إلى منازل المدينة ضمن نظام دقيق فمدت تحت الأرض قنوات لتوصيل المياه العذبة إلى خزانات المساكن ([٩٨]) وكان مصدر هذه المياه يأتي عن طريق (قناة كبيرة تتفرع من النيل عند شيديا (كوم الجيزة) التي تبعد عن العاصمة بحوالي ٣٧ كم ([٩٩]) وهذه المياه العذبة تتجه وتتوزع على خزانات في المنازل التي عثر على عدد منها محمود الفلكي. وقد اهتم البطالمة بالجسور وخاصة جسر "هيبتاستاديوم " الذي يربط الشاطئ بجزيرة فاروس (حوالي ١٣٠٠ مترًا) ([١٠٠]) ويكمن دور هذا الجسر في خلقه لميناءين " الميناء الكبير " المتجه إلى الشرق وهو الميناء الكبير Portus Magnus ، والآخر " يونوستوس " أي العود الحميد Eunostos إلى الغرب وقد وضع في الجسر ممران قرب طرفيه يصلان بين الميناءين ([١٠١])

إن موقع الإسكندرية البحري جعلها ذات أهمية من الناحية التجارية لهذا تم إنشاء الموانئ لتخفيف ذلك وقد خصص ميناء خاص " ميناء الملوك " الواقع على الشاطئ الجنوبي للميناء الكبير تجاه جزيرة انتيرودوس لرسو سفن الملك وحاشيته وضيوف القصر([١٠٢])

احتل ميناء الإسكندرية مكانة رائدة في مصر إبان الحكم البطلمي في المنطقة وذلك لعدة عوامل هامة منها منارة الإسكندرية التي أقامها المهندس سوستراتوس بن ديكسيفانيس على جزيرة فاروس في الجانب الشرقي ([١٠٣]) وتعتبر هذه المنارة معلمًا معماريًا نادرًا في أنحاء المعمورة حيث يصل ارتفاعها أكثر من ١٣٥ مترًا وكانت نقطة يهتدي بها الملاحون القادمون من شواطئ البحر المتوسط المختلفة. ومن ضمن العوامل أيضًا ترعة شيديا ([١٠٤]) المتفرعة من النيل والممتدة إلى ميناء الإسكندرية

([١٠١])Strabo , Geographika XV, 6.

([١٠٣]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ١٩.

([١٠٣]) لطفي عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٣٠.

([١٠٤]) نفس المرجع ، ص ٣٠.

([١٠٥]) Philo , In Flaccum 55.

([١٠٦]) راجع ، هنري رياض آثار الإسكندرية في العصر البطلمي " تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، ١٩٦٣، ص ١٤٣.

([١٠٧]) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٠.

عبر خليج بحيرة مريوط والذي أقيم عليه ميناء فرعي يدعم الميناء الأساسي ، وقد سهلت هذه الترعة سبل الاتصال التجاري بين الإسكندرية والعالم الإغريقي .

يذكر فيلون ([١٠٥]) أن الإسكندرية كانت تحتوي على خمسة أحياء كبيرة أهمها الحي الملكي (شكل ٢١) أو حي القصور الملكية وهو يطل على الميناء الكبير ، ويمثل أكثر من ربع مساحة المدينة وفي هذا الحي أقام البطالمة قصورهم الملكية حتى تصل قبالة جزيرة أنتيرودس ، فتلتقى بالمسرح الكبير ، ومن بعده معبد بوسيدون ثم معبد قيصرون ([١٠٦]) الذي دشنته كليوباترا وأكمله الإمبراطور الروماني أغسطس (٣٠ ق.م – ١٤ م) ثم تأتي بعد ذلك السوق الكبيرة (الأجورا) والأرصفة ومستودعات الميناء ([١٠٧]). ويتضمن الحي الملكي إضافة إلى القصور الملكية ، حديقة كبيرة للحيوانات مزينة بالنافورات وكذلك المتحف (دار الحكمة) إلى جانب مكتبة الإسكندرية العظيمة التي حج إليها كثير من الفلاسفة والعلماء من أنحاء بلاد اليونان والشرق وغيرها. ويوجد في الحي نفسه مجلس القضاء والجيمنازيوم المعروف لدى اليونان. وعلى قمة المدينة شيد معبد للإله "بان" ([١٠٨]) في حين شيد معبد السرابيوم في راقودة بالحي الوطني (منطقة عمود السواري) الذي لم يظل منه سوى بقايا تقع في الجنوب الغربي لمنطقة عمود السواري ([١٠٩]) ويعود تاريخه إلى بطليموس الثالث (٢٤٦ – ٢٢١ ق.م) وقد وضع مهندس المدينة كلا من ميدان سباق الخيل ([١١٠]) وميدان الألعاب الرياضية في الجهة الشرقية ،والثانى فى الجهة الجنوبية الغربية قريباً من معبد السرابيوم .

أما المقابر فقد وضعت في أطراف المدينة شرقاً ([١١١]) (الشاطبي – الإبراهيمية – مصطفى كامل) وغرباً ([١١٢]) (الأنفوشي – كوم الشقافة – القباري – الورديان – المكس) وكانت هناك جبانتان كبيرتا الحجم : الجبانة الشرقية في الشرق والجبانة الغربية إلى الغرب. وخلال الحكم البطلمي كانت الجبانة الشرقية مخصصة لدفن اليونانيين وغيرهم من الأجانب بينما الجبانة الغربية كانت خاصة بالموتى المصريين.

من خلال هذا الوصف البسيط لتخطيط مدينة الإسكندرية ، نستنتج أن مخطط الإسكندرية مخطط على الطريقة الهللينستية يراعي فيه مفهوم المدينة اليونانية وأيضًا الشرقية فامتزج المفهومان سواءً على المستوى الفكري أو العمراني إلى جانب موقع

Bernard, op,cit.,p.49,p.91.

([١٠٨])

([١٠٩]) هنرى رياض ن المرجع السابقن ص ص ١٣٩-١٤٣ .

([١١٠])Bernard, op,cit.,pp.147-148.

([١١١])Ibidem, pp. 187 ff.

([١١٢])Ibidem, pp. 166 ff.

([١١٣]) نيقولا زيادة ،المرجع السابق ص ص٨٧ .

المدينة المتميز وتراث إنسانها وثقافة الوافد اليوناني ، كل هذه المعطيات جعلت من المدينة نموذجًا لا يضاهيه سوى أنطاكية في بلاد الشام.

إن الإسكندرية قد استوعبت التأثيرات الإغريقية استيعابًا ناضجًا فطورتها ثم تجاوزتها خالقة بذلك شخصيتها "الهللينستية" فأصبحت عاصمة من أكبر العواصم في العالم خلال الفترة البطلمية في مصر في المجال العلمي والفكري والحضاري بشكل عام .

وخلاصة القول أنه

١-في إطار المدينة الإغريقية ولدت المدينة وتطورت وانتقلت إلى أماكن جديدة واتصلت بغيرها واحتكت مدينة المدينة الواحدة بمدينة أخرى ومن ثم كما يقول نيقولا زيادة ([١١٣]) " فقد قولبت " المدينة التفكير السياسي والاجتماعي والاقتصادي فضلا عن قولبتها للتصرف في هذه الأمور في حين أن للشرق القديم وقبل الإغريق والاتروسكيين والرومان بقرون عديدة تجارب متعددة متنوعة المناحي في المدن وحضاراتها ومدينتها ، لكن المدينة الدولة في المشرق القديم (بلاد الشام ، ومصر ، وأرض الرافدين) كانت لها خصائصها وكياناتها واتجاهاتها وانتهى الأمر بها أخيرًا إلى أن تخضع لمملكة أو امبراطورية فتصبح جزءًا من هذا الكل ، لهذا عند قدوم الإسكندر واعتزامه هو وخلفاؤه انشاء " المدينة الإغريقية لتكون وعاءً للمدينة الهللينستية ، حيث إن مدن الشرق قد عرفت من قبل ممالك وامبراطوريات لمدة لا تقل عن عشرين قرنًا .

٢-ولما حطت المدينة الإغريقية رحالها في المشرق وأقامها البطالمة والسلوقيون إزاء المدينة القديمة كان ثمة اختلاف بين ما كان يقوله الوافدون (المستعمرون) وما يدركه أهل البلاد (الذين أصبحت بلادهم مستعمرة) فالأولون يريدون حريتهم على غرار المدن الإغريقية والآخرون يريدون كرامة في بلادهم ، ولكن عندما تظهر الصراعات والخصومات لم تكن من سكان المدينة الأصليين ضد مدينة إغريقية (أو مقدونية) أو مستعمرة عسكرية (مقدونية أو إغريقية) وإنما كانت موجهة ضد السلطة نفسها فالثورات التي عرفها العصر الهللينستي كانت ثورات ضد الحاكم ([١١٤])

٣-انشاء المدن الهللينستية كان سريعاً فقد تم بناء أغلبها في مصر وبلاد الشام والرافدين (ما تبقى منها للسلوقيين) في تفرة امتدت من ٣٠٠ ق.م إلى حوالي ١٧٠ ق.م ، فهذا الزعم القوي كان له الأثر السلبي على المدن نفسها لولا مجئ الرومان فعملية (الهللينية) Hellenisationوالرومانية Romanisation عمليتان متصلتان باشرت الثانية فعلها حيث كانت الأولى قد ثبتت أقدامها .

([١١٤]) نفس المرجع ، ص٧٩.

([١١٥]) نفس المرجع ، ص٨٠.

ونعود الآن إلى سؤال طرحناه في البداية مؤداه ما هو الدور الذي قامت بـــه المدينة الهللينستية في التاريخ الحضاري لمنطقة الشرق ؟

أدى دخول الاسكندر وحملاته على المنطقة إلى قيام الإمبراطورية الرومانية وعرف العالم اتصالاً بين أجزائه لم يعرفه من قبل ، فالتجارة كانت عنصرًا هاما في مجال التطور الاقتصادي، فبضائع الشرق كانت تتجمع في أسواق الإسكندرية وأنطاكيـــة ودمشق وصور وتدمر كي تنقل إلى الغرب، كما كانت بضائع الغرب تصل إلى هذه الأماكن، على أن هذه المدن لم تكن مجرد أسواق لتبادل البضائع بـــل كانـــت لهـــا صناعاتها الخاصة في بلاد الشام ([١١٥]) والزجاج في مصر والأصباغ فـــي لبنـــان . وفي المدن الهللينستية الشرقية كان هناك اختلاف عرقي انعكس على الجانب الطبقي والاجتماعي وأيضًا على مستوى اللغة فالقادمون إلى البلاد كانوا يتحدثون اليونانيـــة أما سكان البلاد فقد احتفظوا بلغاتهم الأصلية ولم تنتشر اليونانية إلا بين فئات مـــن أهل البلاد الأصليين المقيمين في المدن في أغلب الأحياء .

لقد أفادت المدن الهللينستية من سكان منطقة الشرق من خلال جوانب تتعلق بالزراعة فهناك الاهتمام بمد المناطق بالمياه إضافة إلى تجارب زراعية حملت إلى المنطقة وخاصة بلاد الشام ([١١٦]) في تلك الفترة فانعكس ذلك على مستوى الإنتاج. إلى جانب هذا فقد كان دور المدن المصرية والسورية واضحًا فـــي الأدب والفـــن وخاصة بعد ما تم إتقان اللغة اليونانية من قبل أبناء المنطقة ولعل الدور الذي قامت به مدينة الإسكندرية خير دليل على ذلك باعتبارها مدينة العلم الأولـــى فـــي ذلـــك الوقت، فالبطالمة جعلوا من تلك المدينة مركزًا للعلـــم فـــي المتحـــف والمكتبـــة ، فأصبحت كعبة العلماء يقصدونها للعلم والتعلم من جميع الأنحاء ، ويجدر بنا هنا أن نشير إلى بعض رموزها العلمية مثل إقليدس (القرن ٣ ق.م) الذي لم يجد مكانًـــا أصلح من الإسكندرية لمتابعة دراساته ([١١٧])

وفي الإسكندرية قام أراتوستنيس العالم الرياضي القوريني الأصل (٢٧٥ – ٢٠٠ ق.م) بقياس محيط الأرض ، فقائمة أسماء علمـــاء الإســـكندرية ومفكريهـــا وأدبائها طويلة ، ولا يمكن سردها في هذا المجال .

وأيضًا في سورية ([١١٨]) خلال العصر الهللينستي ظهر نقـــولاوس الأديـــب والمؤرخ الذي ألف كتابًا عن تاريخ العالم في ١٤٤ جـــزءًا وأرخيـــاس الأنطـــاكي وبوزيدون الأبامي ثم انطيوخوس العسقلاني الفيلسوف الذي وصل إلى درجة رئيسًا للأكاديمية في أثينا ، فكان العصر الهللينستي بحق عصر تمازج وتقارب وتخاصـــم وتثاقف في أمور الفكر وشؤون الدين والاقتصاد والمجتمع والسياسة وقد انعكس هذا كله على مستوى تخطيط المدينة الهللينستية الشرقية وكذلك على المستوى الفلســـفي

([١١٦]) نفس المرجع ، ص٨٣.

([١١٧]) راجع .عبد الوهاب لطفى الإسكندرية فى العصـــر البطلمـــى "تـــاريخ الإســـكندرية ١٩٦٣ ،ص٣٧ .

([١١٨]) نيقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص٨٣.

الفكري ، بحيث تجلى ذلك في المذاهب الفلسفية السائدة والتي كانت مذاهب انتقائية ، وهذا الانتقاء لم يتعمده مؤسسو هذه المدارس بقدر ما كان لابد لهم من الجمع والتوفيق بين خيوط الفكر الشرقية والإغريقية .

إذن فالعصر الهللينستي بحضارته العظيمة كان نتاجًا لتلاقح ثقافتين ذات اختلاف على مستويات عديدة وضمن تجارب متعددة ومتنوعة .

وإذا كانت حضارة بلاد الشرق وغيرها خلال العصور الشرقية القديمة تتصف بوجود المراكز الحضارية المتعددة التي أفسحت مجالاً رحبًا للتأثيرات الغربية (الإغريقية) فإن هذه التأثيرات بدورها أضفت على هذه الحضارة طابعًا خاصًا تكامل في جوانب كثيرة تنظيمًا وعمرانًا وتخطيطًا وغيرها.

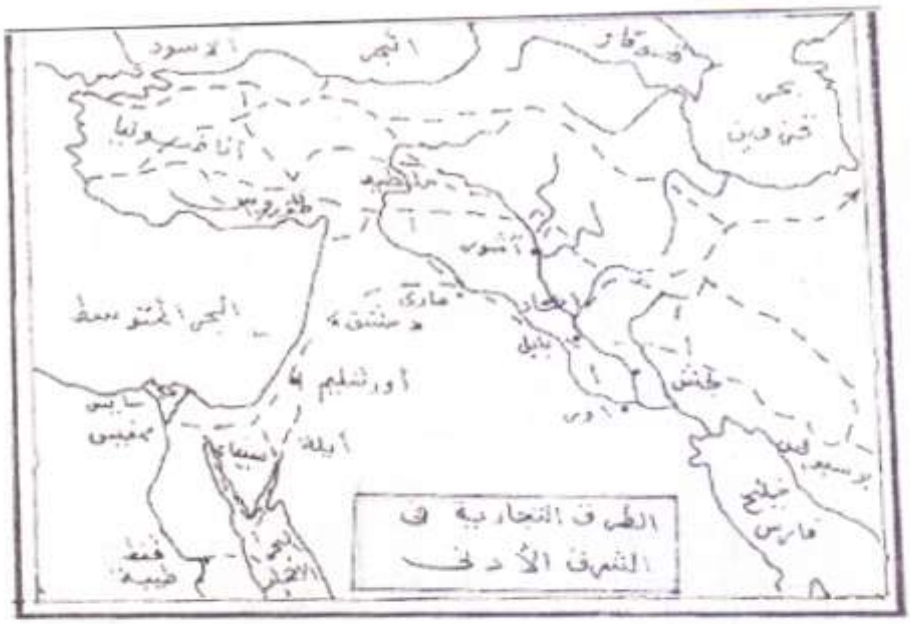
الطرق التجارية فى
الشرق الأدنى
البحر المتوسط
البحر الأحمر
الخليج
فارس

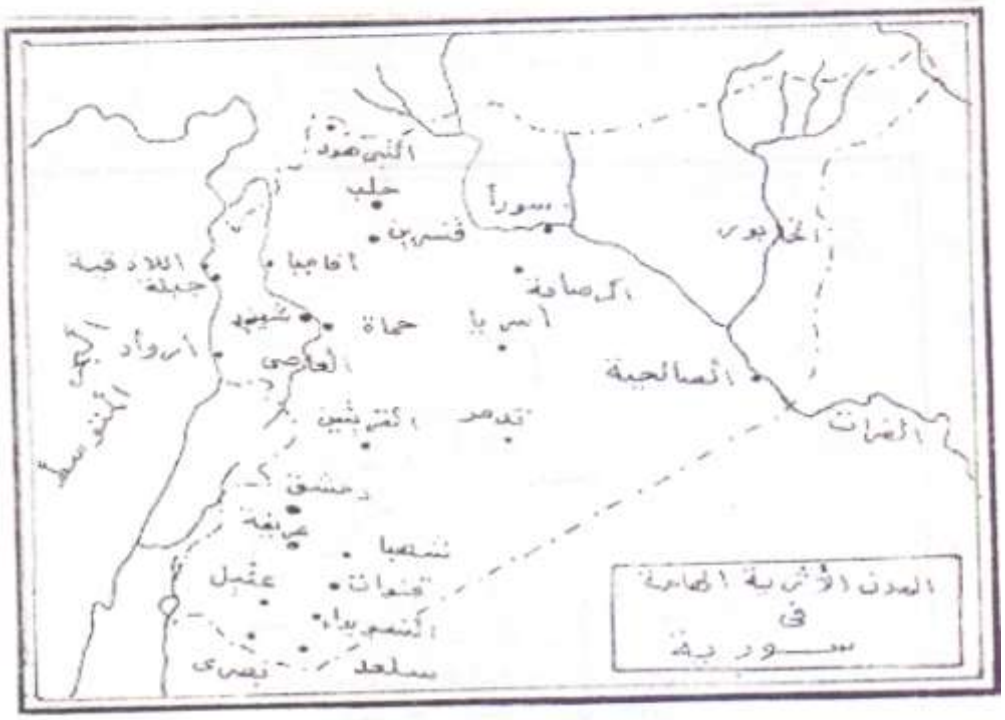
المدن الأثرية الهامة
فى
سورية
حلب
حماة
حمص
تدمر
دمشق
الصالحية
الفرات

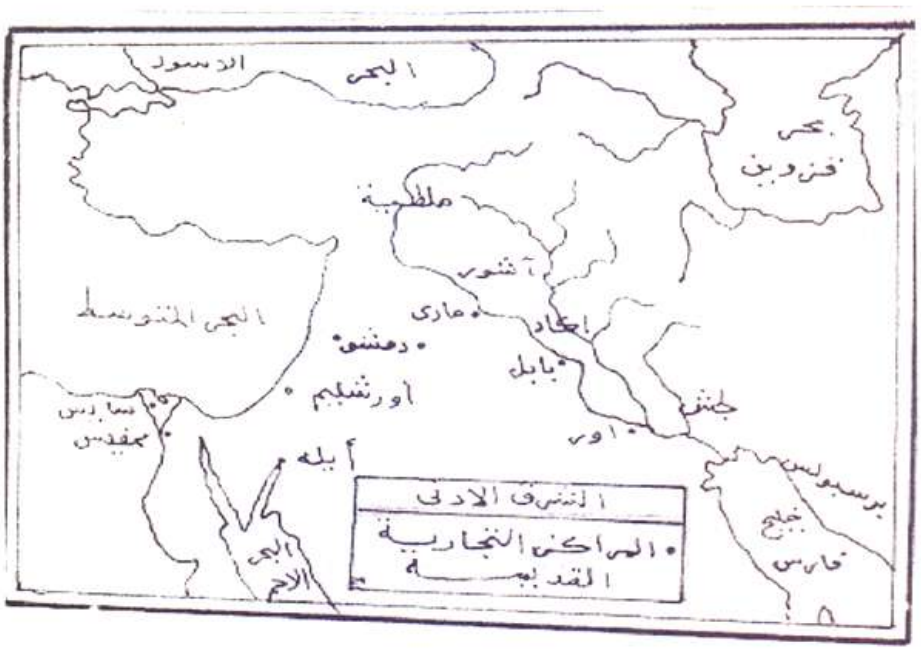
البحر
الاسود
بحر
قزوين
ملطية
آشور
ماري
البحر المتوسط
دمشق
بابل
اورشليم
جبل
بيبلوس
خليج
فارس
ا لشرق الادنى
• المراكز التجارية
القديمة

شكل ٥

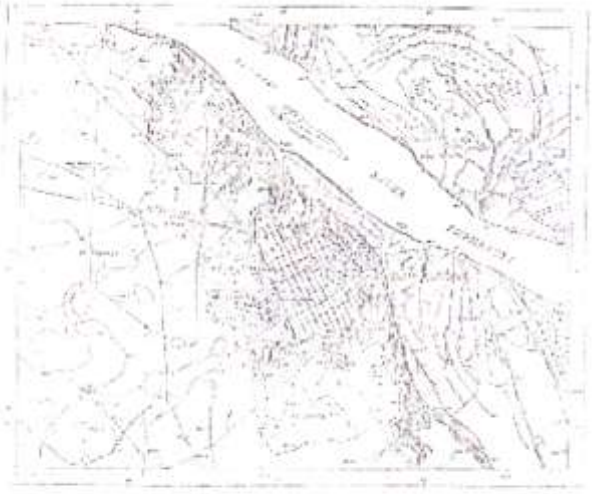

شكل ٧

شكل ٦

شكل ٨

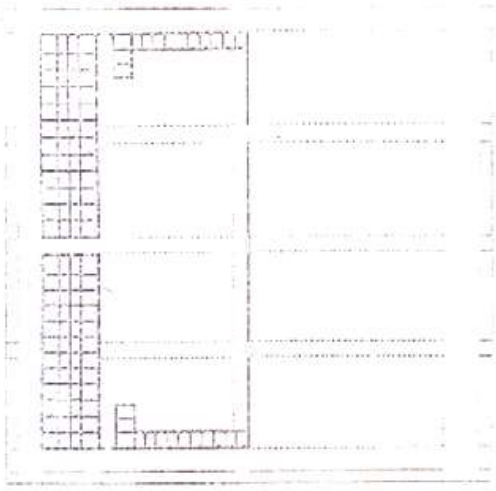

شكل ٩

شكل ١١

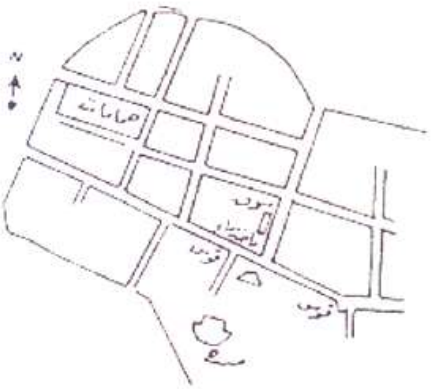

شكل ١٠

شكل ١٢

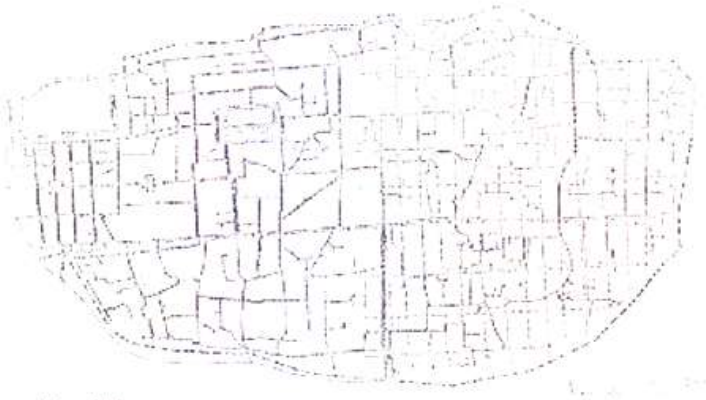

شكل ١٣

شكل ١٤

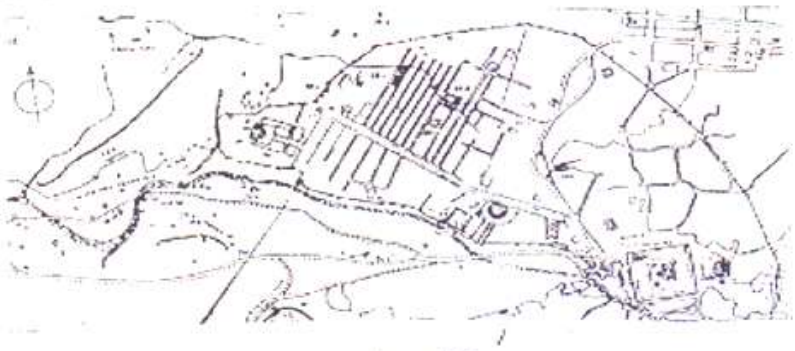

شكل ١٥

شكل ١٦

شكل ١٧

شكل ١٨

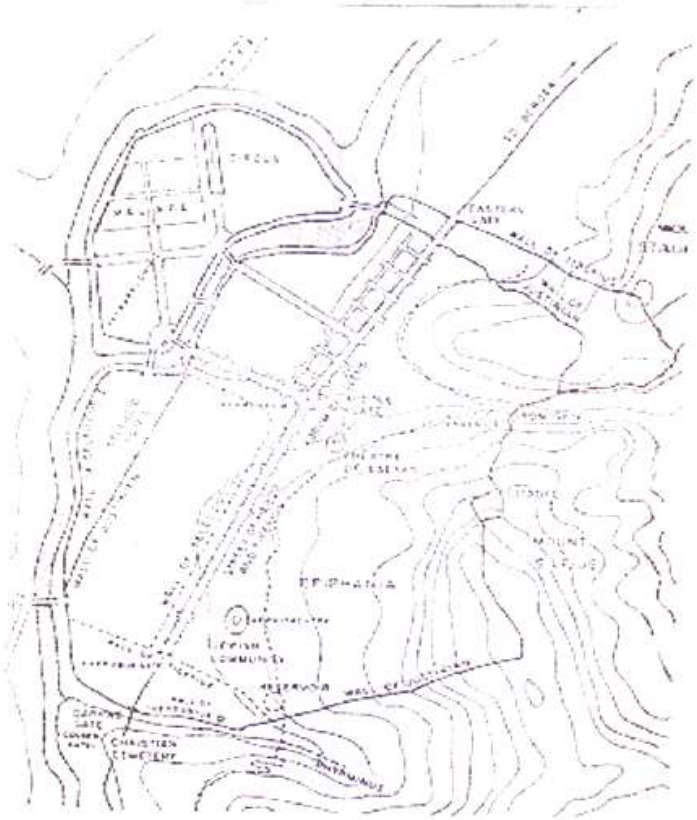

شكل ١٩

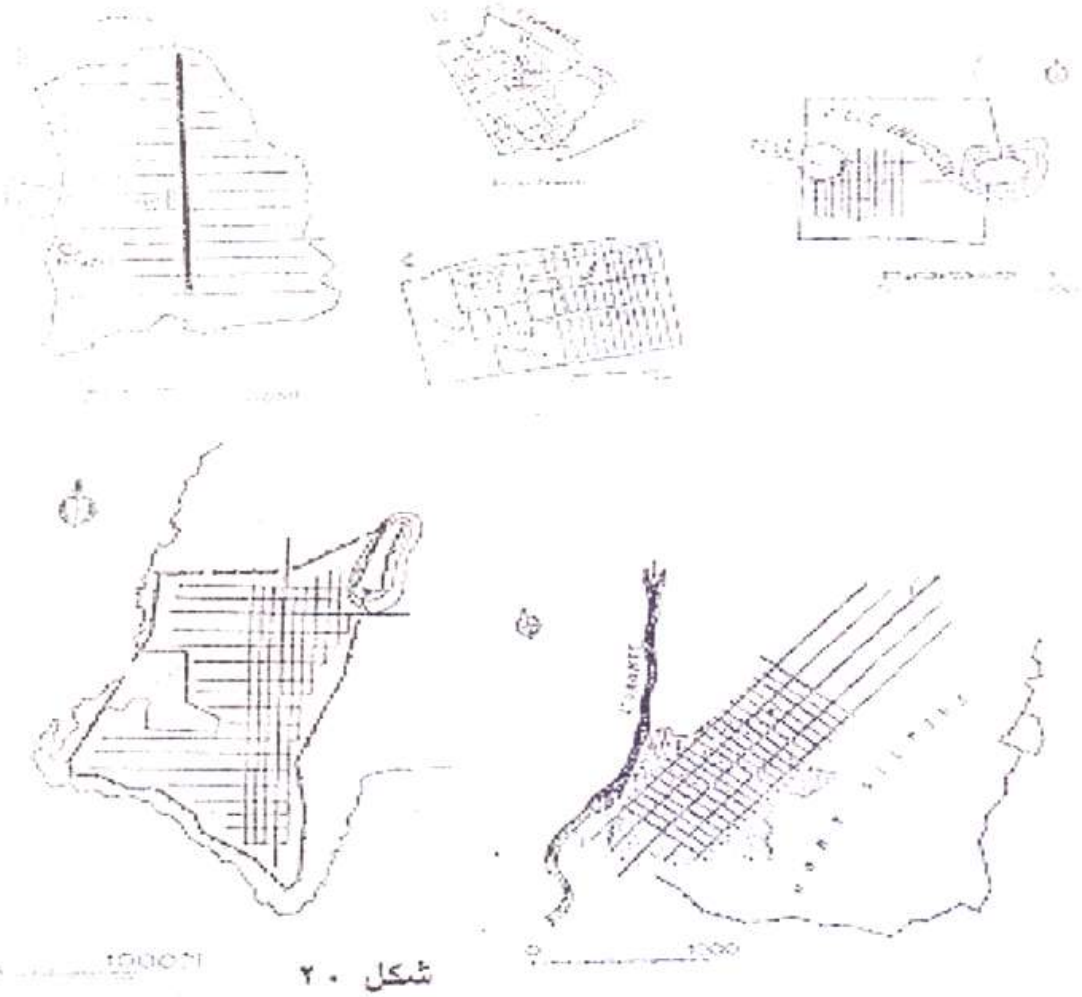

شكل ٢٠

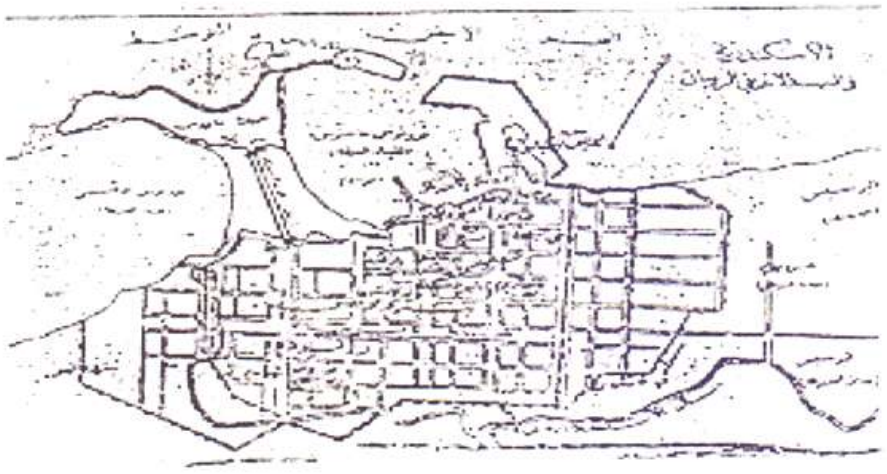

شكل ٢١